مجلة جامعة بنغازي العلمية

www.sjuob.uob.edu.ly

التّوَسّع الفَاطمي في إقْلِيمَي طرابلس الغرب وبرقة وموقف الأهالي منه (297-443هـ/909-1051م)

رمضان محمد رمضان الأحمر *

بقسم التاريخ-كلية الآداب-جامعة بنغازي.

تاريخ الاستلام: 26 / 03 / 2021 تاريخ القبول: 12 / 05 / 2021

الملخص:

بعد نجاح الفاطميّين في هزيمة الأغالبة أصحاب إفريقية، والإعلان عن قيام دولتهم الشّيعية المنتظرة على ممتلكاتهم في سنة 297هـ/909م، بدأت أنظارهم التّوسعيّة تلوح صوب المشرق وتحديداً على مصر. ولكي يصلوا إليها كان لزاماً عليهم أن يفرضوا سيطرتهم أولاً على إقليمي طرابلس الغرب وبرقة وأن يُخْضِعُوا أهاليهما لسلطانهم، وذلك كي تكون الطريق أمامهم إلى مصر سالكة آمنة. وفي هذا البحث نهدف إلى توضيح صورة التوسع الفاطمي في طرابلس الغرب وبرقة وتتبع مراحله، وتبيان موقف أهالي الإقليمين منه وكيفية تعاملهم معه. ومن خلال استخدام المنهج التاريخي السّردي -الذي يعتمد على استرجاع المعلومات التاريخية المتعلقة بموضوع الدراسة ثم تجميعها وتمحيصها وتحليلها والمقارنة بينها في بعض الأحيان، وبعد ذلك تركيبها تركيباً تاريخياً سليماً- تَمَكّنت الدراسة من تحقيق أهدافها بمعرفة الخُطُوَات التي سَلَكَهَا الفاطميّون لإتمام توسعهم في الإقليمين وكيفية إنجاح عملية السيطرة عليهما. كما تَوَصّلت أيضاً إلى توضيح موقف أهالي الإقليمين من هذا التوسع والسيطرة، الذي كان في مجمله -أي الموقف-تغلب عليه روح المقاومة والتّمَرّد. وقد استنتجت الدراسة أنّ سُكّان الإقليمين وأهاليهما لم يخضعوا لحكم الفاطميين وسلطانهم إلا بقوة السّلاح وبعد عِدّة ثورات منهم استطاع الفاطميّون إخمادها بالحديد والنار، وأنّ هذا الخضوع كان سياسيّاً فقط فلم يستطع الفاطميون إخضاعهم مذهبياً، حيث لم يَلْقَ المذهب الشّيعي قَبُولاً بين سُكّان الإقليمين وانتشاراً.

الكلمات المفتاحية:

طرابلس الغرب، برقة، الفاطميّون، تَوَسّع، تَمَرّد.

Abstract

After the success of the Fatimids in defeating the Aghlabids rulers in the Morocco of nearer (Ifriqiya) and the establishment of their Shiite state on their lands in the year 297 AH / 909 CE. Their expansion ambitions began to move towards the East, specifically to Egypt. In order to reach it, they had to first impose their control over the provinces of Tripoli of-the-West and Barca and to submit their people to their authority, to be the way ahead of them to Egypt will be safe and passable. In this paper, we aim to clarify the picture of the Fatimid expansion in the Tripoli of-the-West and Barca and clarify the position of the people of the two provinces from it and how they deal with Fatimid presence. Moreover, by using, a historical method that depends on retrieving historical information related to the period of study, then collection it, scrutinize it, analyze it and compare it in some cases, and then write in a proper historical manner. The study was able to achieve its goals by knowing the steps taken by the Fatimids to complete their expansion at the two provinces and success in control it. In addition, it has managed to clarify the stance of the people of the two provinces regarding this expansion and control. That stance, often characterized by the spirit of resistance and rebellion. Furthermore, the study concluded that the inhabitants of the two provinces and its people did not submit to the rule and authority of the Fatimids except by force of arms, and after several revolts from them, the Fatimids were able to suppress it with iron and fire. Moreover, that this submission was political only, so the Fatimids could not subject them to their doctrine, as the Shiite sect did not find acceptance and spread among the inhabitants of the two provinces.

Keywords: Tripoli of-the-West, Barca, the Fatimids, Expansion, Rebellion.

1. المقدمة:

نجح الفاطميّون بعد جهود كبيرة وحروب دامية في إقامة دولة لهم في المغرب الأدنى (إفريقيّة) منذ أواخر القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي (297هـ/909م)، وذلك بعد نجاحهم في هزيمة الأغالبة (184-296هـ/800-908م)، والاستيلاء على مُلكهم في المنطقة، وإعلان الخليفة الفاطمي الأول عُبَيد الله المهدي (297-322هـ/909-933م) عن قيام الخلافة الفاطمية من مدينة رَقّادة[1] التونسية -عاصمة الأغالبة الخاصة-سنة 297هـ/909م، حيث جُـدِّدَت لـه البَيْعَـة، وذُكِـرَ اسـمه فـي الخطبـة، وتَلَقّـب بـ "المهـدي أميـر المؤمنين". ثم قام بتقسيم أعمال دولته الجديدة على رؤساء قبيلة كُتَامة[2] الذين سـاعدوا علـى إقامتهـا، ودَوَّن الـدّواوين، وجَبَـى الأمـوال، واسـتقرت قَدَمَـهُ،

[1] رَقّادة: بلدة كانت بإفريقية، بناها إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (261-289هـ/874-901م) سنة 263هـ/876م، ولما أتَمّهَا انتقل إليها من مدينة القصر القديم. وكانت تتميز بالبساتين، ولم يكن بإفريقية أطيب هواءً ولا أعدل نسيماً وأرقّ تربةً منها = ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله: معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977م، 55/3.

[2] كُتَامة: مجموعة من القبائل المستقرة والمنتشرة في بلاد المغرب والأندلس، ترجع في أصولها إلى البَربَر من فرع البَرانس حسب التقسيم التقليدي للمجتمع الأمازيغي. وأفرادها كثيرو العدد والانتشار كان لهم العديد من القصور والحواضر والمراكز في إفريقية والمغرب الأوسط والأقصى والأندلس، منها: بجاية وقسنطينة وميلة وسطيف وإيكجان. وقد قامت كتامة بدورٍ أساسي وفاعل في قيام الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب منذ مرحلة الدعوة، واستمرّ دورها في إرساء دعائم الدولة وتثبيتها وكذلك في انتقالها إلى مصر حتى توسعها في بلاد الشام وغيرها. وللمزيد عن كتامة ودورها مع الفاطميين ينظر: لقبال، موسى: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979م.

* للمراسلات إلى: رمضان محمد رمضان الأحمر

البريد الإلكتروني:

r.alahmer@gmail.com

ودانت له أهل البلاد، وبعث العُمّال عليها[1].

ولم يكن حلم الفاطميين لينتهي بتأسيس دولتهم المغربية هذه، فإنها لم تكن سوى هدف مبدئي وخُطوة أولى نحو تحقيق أملهم الواسع في حكم كل البلاد الإسلامية من أقصى المغرب الإسلامي إلى أقصى المشرق[2]. ولكي يحقق الفاطميّون حلمهم هذا كان عليهم أنْ ينتقلوا بحكمهم إلى قاعدة متينة تكون في المشرق الإسلامي، فَتَوَجّهت أنظارهم إلى مِصْرَ، التي كانت غنية في ثرواتها، موفورة في خيراتها، ذات موقع استراتيجي مهم يمكن منها الاستيلاء على المراكز الإسلامية القديمة، كَمَكّة والمدينة ودمشق، بل والنفاذ والسيطرة على بغداد نفسها حاضرة الخلافة العباسية المعادية لهم[3] إنْ أمكن لهم ذلك.

لذلك كان لزاماً على الفاطميين لتأمين وصولهم إلى مصر والامتداد إليها أنْ يُحْكِمُوا سيطرتهم أولاً على إقليمي طرابلس الغرب وبرقة، اللذين كانا ولا زالا بحكم موقعهما المميز بمثابة حلقة الوصل والجسر الرابط بين مصر وولاية إفريقية بشكلٍ خاص، وبين مَشرق العالم الإسلامي ومَغربه بشكلٍ عام. لذلك عمل الفاطميّون على السيطرة على الإقليمين منذ قضائهم على دولة الأغالبة وسقوط ولاية إفريقية في أيديهم. وقد مَرّ سَعْيُهُم في إخضاعِهِمَا بجهودٍ حثيثة ومناورات حربية تَمَخّضَت من مقاومة الكثير من أهالي الإقليمين لهم وتمردهم على حكمهم، لهذا شهد تَوَسّع الفاطميين في طرابلس الغرب وبرقة ووجودهم فيهما سنواتٍ من الصّراع والأعمال العسكرية جاءت وتيرتها على النحو الآتي:

أولاً: سَعْيِ الفاطميين لإخضاع طرابلس الغرب:

بعد أنْ قامت الدولة الفاطمية في ولاية إفريقية خلفاً للدولة الأغلبية، قُدِّر لمدينة طرابلس -أشهر مدن إقليم طرابلس الغرب وأهمّها-أنْ تَشْهَدَ إسدال السّتار الأخير على الحكم الأغلبي الذي ارتبطت به منذ تأسيسه[4]. حيث حَلّ فيها آخر أُمَرَائِها زيادة الله الثالث (290-296هـ/902-908م) سنة 296هـ/908م، ومَكَثَ فيها حوالي تسعة عشر يوماً هارباً من رَقّادة بعد الهزائم التي لحقت به أمام الجيوش الفاطمية بقيادة أبي عبد الله الشّيعي[5]. ولما خرج زيادة الله من مدينة طرابلس قاصداً مصر مَشَى معه شيوخها ووجهاؤها إلى باب المدينة، وعند الباب صرفهم وأمرهم بإغلاقه عليهم وعدم فتحه لأيّ أحدٍ من رِفْقَتِهِ إنْ رجع بعده. ومن مصر توجه لبغداد ولكنه لم يَتَمَكّن من دخولها، فسار إلى بيت المقدس وهناك مات بعد ويلات وخيانات حدثت له من رفقائه الذين كانوا معه في سفره[6].

وبطبيعة الحال بعد سقوط ولاية إفريقية في أيدي الفاطميين أصبحت طرابلس ضمنياً من أملاكهم باعتبارها جزءًا من إفريقية[7]، فأرسل إليها الخليفة المهدي سنة 297هـ/909م من مقر حكمه في مدينة رَقّادة عامله ماكنون بن ضبارة الألجائي[8]. فكان بذلك أول والٍ على طرابلس من قِبَل الفاطميين، فقدم إليها مع قوة من قبيلة كتامة المخلصة للفاطميين[9]. ولكن سرعان ما قامت في وَجْهِهِ ثورة من سُكّان المدينة سنة 298هـ/910م، تقودها قبيلة هوّارة البَرْبَرِيّة[10] برئاسة أبي هارون الهوّاري. كما زحفت أيضاً جماعة من قبائل زناته ولماية، وغيرها من القبائل وقامت بمحاصرة مدينة طرابلس. فأرسل إليهم عبيد الله المهدي جيشاً كبيراً بقيادة أبي زاكٍ تَمّام بن مُعَارك الأَجّاني، فهزمهم وفَرّق جموعهم، وقتل كثيراً منهم. كما بعث أبو زاكٍ للمهدي برؤوسٍ كثيرة وآذان مقطوعة لمن قتلهم، فَنُصِّبَت بِرَقّادة[11]، للاستعراض وإثبات الهيمنة، ولترهيب من تُسَوّل له نفسه الخروج على الخليفة الفاطمي.

على ما يكون، فلم يهنأ أبو زاكٍ بانتصاره هذا لأنّ المهدي كتب إلى عَمّه ماكنون يأمره بقتله، فَبَعَثَ ماكنون في طلب أبي زاكٍ وأراه كتاب الخليفة المهدي، فَلَمّا قرأه أبو زاكٍ قال له: "يا عم، نَفِّذ ما أُمِرْتَ به"، فضرب ماكنون عنق أبي زاكٍ، وأرسل إلى المهدي يخبره بتنفيذ أوامره بحَمَامٍ وصل إلى رَقّادة من ساعته، وكان ذلك في غرة ذي الحجة سنة 298هـ/910م[12]. وكان السّبب في قتل المهدي لأبي زاكٍ، أنّه كان مشاركاً مع الداعية أبي عبد الله الشّيعي وأخيه العبّاس ومعهم جملة من المتآمرين من وجوه قبيلة كتامة، في مؤامرة لقتل الخليفة المهدي والاستئثار بالحكم دونه. وكانت اجتماعاتهم التّآمُريّة هذه تتم في بيت أبي زاكٍ، ولكن الخليفة المهدي كان قد عَلِمَ بمخططاتهم فعمل على قتلهم كلهم بمن فيهم الداعية الشيعي وأخوه العباس سنة 298هـ/910م[13].

- ***تَمَرّد أهالي طرابلس على الحكم الفاطمي:***

على كل حال، فإنّه بعد إخماد ثورة أهل طرابلس الأولى على الحكم الفاطمي، سار ماكنون والي طرابلس مع الأهالي سياسة التّطَاول في الحكم، وبَسَطَ أيدي أبناء عمومته من كتامة في أموال الناس وممتلكاتهم وحرماتهم أيضاً. مما أثار حفيظة الكثير من أهالي طرابلس فَثَاروا عليه سنة 300هـ/912م، وقتكوا برجال كتامة، وهرب ماكنون من المدينة، فأغلق الأهالي أبواب المدينة عليهم ونالوا ممن بَقِيَ فيها من الكتاميين، ووَلّوا عليهم محمد بن إسحاق المعروف بـ "ابن القرلين"[14]. أما ماكنون فقد سار إلى الخليفة المهدي مخذولاً، فَسَارع المهدي بإرسال جيشٍ على رأسه بعض قادته، حارب به المدينة وحاصرها شهوراً، ولكنّ أهالي طرابلس أثبتوا

---

[1] ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأعظم، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2000م، 4/47. كذلك المقريزي، تَقِيّ الدين أحمد بن علي: اتّعاظ الحُنَفَا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلَفَا، تحقيق جمال الدين الشّيّال، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط2، 1996م، 1/65-66.

[2] جمال الدين، عبد الله محمد: الدولة الفاطمية قيامها بلاد المغرب وانتقالها إلى مصر إلى نهاية القرن الرابع الهجري مع عناية خاصة بالجيش، القاهرة، دار الثقافة، 1991م، ص4.

[3] العبادي، أحمد مختار: في التاريخ العباسي والفاطمي، بيروت، دار النهضة العربية، د. ت، ص247.

4 التّلّيسي، بشير رمضان، تاريخ ليبيا عقب الفتح العربي الإسلامي، بحث منشور ضمن كتاب معالم الحضارة الإسلامية في ليبيا، القاهرة، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، ط1، 2008م، ص66.

5 ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني: الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفدا عبد الله القاضي وراجعه وصَحّحَهُ محمد يوسق الدقّاق، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1987م، 6/445.
وأبو عبد الله الشيعي: هو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا المعروف بالشيعي، من أهل صنعاء باليمن. كان من الرجال الدُّهَاة الخبيرين بما يصنعون، يُعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية بإفريقية، بما بذله من جهود دَعَوِيّة وحربية إلى أنْ مَلّكَها باسم الخليفة الفاطمي. تُوُفّيَ في مدينة رَقّادة بالمغرب سنة 298هـ/910م = ابن خلّكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان فيما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبته البيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط4، 2005م، 2/192.

6 القاضي النّعمان، أبو حنيفة النّعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حَيّون: كتاب افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ط2، 1986م، ص262-268.

7 تُعْتَبر طرابلس أُوْلَى مُدُن ولاية إفريقية من شرقها مما يلي إقليم برقة = ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى: مَسَالك الأبصار في ممالك الأمصار، أشرف على تحقيق الموسوعة وحَقّقَ هذا السِّفْر كامل سلمان الجبوري، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2010م، 4/63.

8 ابن خلدون: تاريخ، مصدر سابق، 4/47. وعند ابن عذاري المراكشي ورد اسمه: ماقنون بن دبّارة الأجّاني = البيان المُغْرب في أخبار الأندلس والمَغْرب، تحقيق ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، ط3، 1983م، 1/168.

9 روسّي، إتّوري: ليبيا منذ الفتح العربي حتّى سنة 1911م، ترجمة وتقديم خليفة محمد التليسي، د.م، الدار العربية للكتاب، ط2، 1991م، ص86.

10 البَرْبَرِيّة نسبة إلى البَرْبَر: وهو اسم يشتمل على قبائل كثيرة، انتشرت فيما بين برقة والبحر المحيط (المحيط الأطلسي) شرقاً وغرباً، وما بين بلاد السّودان والبحر الرومي (البحر الأبيض المتوسط) جنوباً وشمالاً. وهم أُمَم وقبائل كثيرة لا تُحْصَى، يُنْسَبُ كل موضع إلى القبيلة التي تنزله، ويُقَال لمجموع بلادهم قديماً: بلاد البَرْبَر = (ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، مج1/368-369. كذلك النّاصري، أبو العبّاس أحمد بن خالد: كتاب الاستقصا لأخبار دُوَل المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر النّاصري وخالد النّاصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1997م، 1/120).
والشّعوب المُنْسُوبة إلى البَرْبَر في وقتنا الحاضر لا يرغبون بتسميتهم بـ"البَرْبَر" وينفرون منها. ولديهم حالياً اسم آخر يُعْرَفُون به ويُفَضّلونه ولا يُريدون سواه، وهو: "الأمازيغ"، ومفردها "أمازيجي"، أو "أمازيغي"، ومعناها الرجل الحُر النّبيل. وهو اسم له جُذُور فينيقية، فيُقَال إنّ لفظة "مازيس" أُطْلِقَت على الشّعوب القويّة التي تَمَرّدت على الإمبراطورية الرومانية = الزّيْني، نُهَى: أيّام الأمازيغ أضواء على التاريخ السّياسي الإسلامي، القاهرة، دار الشروق، ط2، 2012م، ص15.

11 ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، 1/163.

12 المصدر نفسه، 1/164.

13 ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق، 6/462.

14 ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، 1/169.

بسالتهم في الدفاع عن مدينتهم وحمايتها، حيث لم يفلح الجيش الفاطمي بجميع قادته وإمكانياته العسكرية الهائلة في الدخول إليها[1].

فَغَاظَ ذلك الخليفة المهدي فَبَعَثَ إليهم ابنه وَوَلِيّ عهده أبا القاسم - الذي أصبح فيما بعد الخليفة الفاطمي الثاني، مُتَلَقِّباً بالقائم بأمر الله (322-334هـ/933-945م) -في جيشٍ كبير[2]، كما أرسل في الوقت نفسه خمسة عشر مركباً في البحر، فَلَمّا وصلت إلى شواطئ طرابلس أخرج إليها أهلها مراكبهم، التي استطاعت حرق الأسطول الفاطمي وقتل من فيه[3].

أمّا أبو القاسم فقد سار في البَرّ نحو طرابلس فلمّا وصل إليها طاف بحصنها فعلم أنه لن يستطيع نيله بالحصار ما دامت الغَلّات لا تزال تَرِدُ على أهله من البحر، مساندة ودعماً من قبيلة هَوّارة -القاطنة خارج أسوار طرابلس- لأهالي المدينة. عند ذلك سَارَ صوب مضارب قبيلة هَوّارة أولاً وهَاجَمهم لقطع الإمدادات عن أهل طرابلس، فأوقع بهم قتلاً وتشريداً وغَنِمَ أموالهم. وبعدها رجع إلى طرابلس فحاربها وحاصر أهلها -الذين كانوا قد أسمعوه شَرّاً ونالوا من عرضه كثيراً- مدة سِتّةِ أشهر[5]، إلى أنْ نَفدَ طعامهم وأصابهم الجوع، حتى قيل إنهم أكلوا الْمَيْتَةَ. عند ذلك طلب منه أهلها الأمان، فَأَمّنهم ما عدا ثلاثة أنفس اشترط التّحَكّم فيها، وهم: محمد بن إسحاق القرشي، ومحمد ابن نصر، ورجل يُعْرَف بـ"الحوححة". فدخل أبو القاسم طرابلس وقبض على هؤلاء الثلاثة، وقتل كل من وجده من بقايا بَني الأغلب وقُوّادهم[6]، الذين من الممكن أنّهم مَنْ كانوا يترأسون الأهالي في الدفاع عن المدينة. كما غَرَّمَ أهل طرابلس مبلغاً كبيراً من المال مقداره ثلاثمائة ألف دينار[7]، وقيل أربعمائة ألف دينار؛ وهو قيمة ما أنفقه على جيشه في هذه الحملة. وكان الذي تَوَلّى تغريم أهل طرابلس والتّنْكيل بهم عقب هذه الثّورة هو الخليل بن إسحاق (ت: سنة 332هـ/943م)، وهو من أبناء جندها وممن وُلِدَ بها، وكانت له صَوْلَة وهَيْبَة وحَظّ جليل من العلم، وباع مُتّسع من الأدب[8]، وكان في أول عمره يطلب العلم والأدب ويصحب الصّوفيّة ويبيت في المساجد، وذلك قبل أن ينضوي تحت عباءة الفاطميين ويُظهر الوجه الآخر له في هذه المحنة التي أَلَمّت بأهل طرابلس[9].

وفي أثناء وجود أبي القاسم في طرابلس حال دون وقوعها في يد أحمد بن قرهب والي صِقِلِّيَةِ الثائر على الفاطميين. حيث يخبرنا ابن الأثير (ت: سنة 630هـ/1232م)، في أحداث سنة 300هـ/912م، قائلاً: "وأخرج ابن قرهب جيشاً في البحر إلى ساحل إفريقية، فلقوا هناك أسطول المهدي، ومقدمه الحسن بن أبي خنزير، فأحرقوا الأسطول، وقتلوا الحسن، وحملوا رأسه إلى ابن قرهب. وسار الأسطول الصّقلي إلى مدينة سفاقس فخَرّبوها، وساروا إلى طرابلس فوجدوا فيها القائم بن المهدي فعادوا"[10].

وهكذا خضعت طرابلس الغرب للحكم الفاطمي بعد ثورتين من أهاليها جُوبهت بالقوة من قِبَل العساكر الفاطمية. وبعد أنْ نجح أبو القاسم في قمع ثورة أهالي طرابلس الثانية قام بتولية أبي مديني بن كناوة اللُّهَيْصَي على المدينة، وترك معه حُبَاسة بن يوسف الملوسي الكُتَامي (ت: سنة 302هـ/914م)، في حين عاد هو بالجيش إلى رَقّادة ظافراً مَنصوراً مُؤيداً محبوراً[11]، وبين يديه الثلاثة الذين تَقَدّم ذكرهم، فَطِيفَ بهم في شوارع القيروان وميادينها على الجمال مُرْتَدِين القَلانس الطّوال، ثم قُتِلُوا بعد ذلك[12]. وهذه الوَضْعِيّة التي عُرِضوا بها كانت إحدى أشهر أساليب النِّكَاية والعقاب لدى الفاطميين ضد أعدائهم وخصومهم في ذلك الوقت.

ثانياً: تَوَسّع الفاطميين في إقليم برقة:

بعد أنْ سيطر الفاطميّون على إقليم طرابلس بدأت أنظارهم تلوح صوب إقليم برقة الْمُكَمّل الجغرافي والتاريخي لإقليم طرابلس، ولاسيّما أنّ حملة أبي القاسم سالفة الذكر قد بَيّنَت للخليفة المهدي أنّه لا يزال هناك بقايا من فلول جند الأغالبة والعبّاسيين في إقليم برقة[13]، وخاصةً في مُدُنه السّاحلية على امتداد الطريق الْمُوَصّلة إلى مصر. فكان عليه التّجْهيز والإعداد لِمَدِّ نفوذه على إقليم برقة، الذي تُعتبر السّيطرة عليه بمثابة امتلاك المفتاح الذي يُفْتَح منه الباب على مِصْرَاعَيه لتحقيق أماني الفاطميين الواسعة في حكم كل البلاد الإسلامية من أقصى المغرب الإسلامي إلى أقصى المشرق. فإنه من خلال أراضي برقة يمكن العبور إلى مصر والسيطرة عليها.

ومهما يكن من الأمر فإنه في حدود الفترة الزّمنية التي ثار فيها أهالي طرابلس -سنة 300هـ/912م-ضِدّ الحكم الفاطمي، كانت هناك ثورة أخرى في برقة وإنْ كانت ضد الحكم العَبّاسي فيها. ويبدو أنّه كان للفاطميين يَدٌ في تدبير الاضطراب الذي حدث هناك عن طريق إثارة أعراب المنطقة، الذين خرجوا يهاجمون حدود مصر الغربية، وكان ذلك بمثابة التّمْهيد لثورة المدينة ذاتها، التي اعتبرها العَبّاسيّون خيانة لهم تُؤَدّي إلى فتح حدود مصر للخطر الشّيعي المحدّق بهم من الغرب، لذلك انتقم عامل العباسيين على برقة انتقاماً شَنيعاً من الثّوّار وقتل منهم خلقاً كثيراً، وأرسل الكثير من أنوفهم وآذانهم إلى بغداد[14].

وهكذا شَجّعَت ثورة برقة عُبَيد الله المهدي للإسراع في ضَمّها، فأرسل حُبَاسة بن يوسف الملوسي وبصحبته موسى بن عبد الرحمن الوادي، في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة 301هـ/913م، على رأس حملة للسيطرة على برقة التي كانت آنذاك ضمن الحدود السياسية لمصر، أي تابعة للخلافة العباسية[15]. وفي الوقت نفسه كان على عامل العباسيين في مصر أبو المنصور تكين بن عبد الله الحربي (297-302هـ/909-914م) أنْ يَنْشُطَ في دَرْءِ الخطر الفاطمي القادم إليه ولاسيّما بعد تحذير الخليفة العباسي المقتدر بالله (322-334هـ/933-945م) له "في الجدّ من أمر المغرب والاحتراس منه"[16]. فَعَقَدَ تكين لأبي النّمر أحمد بن صالح (ت: سنة 316هـ/928م) وهو من الأبناء[17] على برقة، وبعث معه جيشاً كبيراً فَسَارَ أبو النّمر إليها فدخلها ونَظّمَ أمرها واشتد سلطانه بها. ثم خرج منها إلى سرت[18] وعمل بها مثل ذلك وتمكن من تحسين أمره في ولايته. وفي سرت تقابل الغريمان حُبَاسة وأبو النّمر، وإنْ انتصف كل واحد منهما وامتنع من

1 المصدر نفسه، 168/1.
2 التّجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد: رحلة التّجاني، ليبيا-تونس، الدار العربية للكتاب، 1981م، ص240. كذلك ابن غلبون الطرابلسي، أبو عبد الله محمد بن خليل: التّذكار فيمن مَلَكَ طرابلس وما كان بها من الأخيار، عَنِيَ بتصحيحه والتّعليق عليه الطاهر أحمد الزاوي، بيروت، دار المدار الإسلامي، ط1، 2004م، ص52.
3 ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، 169/1.
4 التجاني: الرحلة، مصدر سابق، ص241. كذلك ابن غلبون الطرابلسي: التذكار، مصدر سابق، ص52.
5 عماد الدين، إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب "القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار وفنون الآثار في ذكر النبي المصطفى ووصيّه الكرّار وآلهما الأطهار"، تحقيق محمد اليعلاوي بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1985م، ص192.
6 ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، 168/1-169.
7 ابن خلدون: تاريخ، مصدر سابق، 49/4.
8 التجاني: الرحلة، مصدر سابق، ص241. كذلك ابن غلبون الطرابلسي: التذكار، مصدر سابق، ص52.
9 ابن الأبّار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي: الحُلّة السِّيَرَاء، حقّقه وعلّق حواشيه حسين مؤنس، القاهرة، دار المعارف، ط2، 1985م، 302/1.
10 ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق، 475/6.
11 إدريس عماد الدين: عيون الأخبار، مصدر سابق، ص192.
12 ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، 169/1.
13 الزّاوي، الطّاهر أحمد: ولاة طرابلس من بداية الفتح إلى نهاية العهد التركي، بيروت، دار الفتح للطباعة والنشر، ط1، 1970م، ص70-71.
14 الطّبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الرُّسُل والْمُلُوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، 1969م، 146/10.كذلك ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق، 477/6. عبد الحميد، سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1979م، 75/2.
15 إدريس عماد الدين: عيون الأخبار، مصدر سابق، ص192-193. كذلك سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب، مرجع سابق، 76/2.
16 الكندي المصري، أبو عمر محمد بن يوسف: كتاب الولاة وكتاب القضاة، مهذباً ومصححاً بقلم رفن كَست، بيروت، مطبعة الآبا اليسوعيين، 1908م، ص267-268.
17 يُقْصَد بهم الأبناء الذين وُلِدُوا من الجُند العبّاسي المقيم في برقة، أرسلتهم الخلافة العباسية في مهام سابقة إلى برقة وطرابلس وإفريقية عموماً لتهدئتها أو إعادة فتحها، فأقاموا هناك وتناسلوا فيها. وهم من الممكن أن يكونوا من أصولٍ عربية أو فارسية وهو الأغلب، ولاسيّما أنّ الدولة العباسية كانت قد قامت على أكتاف الخُرَسانيين كما هو معروف = الطّالبي، محمد: الدولة الأغلبية التاريخ السياسي (184-296هـ/800-909م)، تعريب المنجي الصّيَّادي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1995م، ص166.
18 سرت القديمة: مدينة عامرة من إقليم برقة في ذلك الوقت، تقع على الطريق الساحلي بينها وبين مدينة طرابلس حوالي مائتين وثلاثين ميلاً (433.550كم)، وبينها وبين البحر ميلان (3.770كم) = الحِمْيَري، محمد بن عبد المنعم: الرَّوْضُ الْمِعْطَار في خَبر الأقطار، حقّقه إحسان عبّاس، بيروت، مكتبة لبنان، ط2، 1984م، ص312.

صاحبه. فَعَزم والي مصر تكين على صرف أبي النّمر من ولاية برقة وأنْ يضع عليها خير المنصوري. فَبَلَغَ حُبَاسة خبر عزم تكين على عزل أبي النّمر، فأراد أنْ يَفتّ في عضده، ويهبط من عزيمته، فقال له: "ما الذي يحملك على حربنا وأنت معزول؟"، وبعث إليه بالكتاب الذي كان قد وَرَدَ عليه من مصر يخبره بعزله وتَوْلِيَة خير المنصوري مكانه على برقة[1].

وبالفعل نجحت فكرة حُبَاسة، حيث رجع أبو النّمر إلى مدينة برقة[2] قاصداً مصر[3]، في حين دخل حُبَاسة إلى مدينة سرت بالأمان وهرب من كان فيها من الجُنْد العباسي، وأرسل بذلك كِتاباً قُرِئَ في مساجد إفريقية ابتهاجاً بهذا النّصر. وقد حصل لمدينة أجدابية (أجدابيا) ما حَصَلَ لِسرت فَدَخَلَهَا حُبَاسة بالأمان أيضاً، وهرب من كان فيها من بَني العبّاس. واستمرّ حُبَاسة في التقدم وكان عُبَيد الله يَمُدّه بالجيوش في مَسيره إلى أنْ وصل مدينة برقة[4] هو وموسى بن عبد الرحمن ومن معهم من العساكر الفاطمية، فدخلوها من غير قتالٍ في السابع من شهر رجب سنة 301هـ/913م[5]. وذلك بعد رحيل أبي النّمر عنها إلى مصر، فَخَرَج إليها القائدان العَبّاسِيَّان خير المنصوري ومعه عبد العزيز بن كُلَيب الجرشي، ويبدو أنّه حصل بينهما تنافس على ولاية برقة، فَتَجَافَيَا، فاسْتَغَلّ حُبَاسة ذلك وظفر بهما وتمكن من هزيمتهما، فانصرفا إلى مصر منهزمين خائبين[6].

وبالرغم من أنّ حُبَاسة كان قد دخل مُدُن إقليم برقة بالأمان ومن غير قتالٍ في العموم، إلّا أنه كان شديد الوَطْأة عليها، حيث يخبرنا ابن عذاري المراكشي (عاش في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) أنه: "كُلّما دخل مدينة قتل أهلها وأخذ أموالهم وعَاثَ فيهم"[7]. وذكر أيضاً أنّه أخذ في خَلْقِ الْعِلَل للتنكيل بالْمُيَسّرين من أهل مدينة برقة واستباحة أموالهم، لدرجة أنه أخذ جماعة منهم كانوا يلعبون بالحَمَام، فأضرم لهم ناراً وأجلسهم حَوَالَيْهَا وأمر أنْ تُقَطّع لُحُومهم وتُشْوَى ثم يُطْعِمُوها لهم، وبعد ذلك قذفهم في النار، وقال: "إنّ هذه الحمام كانت تأتيهم بالأخبار من قِبَل بَني العبّاس"[8]. كما نَادَى مُنَاديه في برقة "من أراد العطاء والرّزقَ الواسعَ فَلْيَأْتِ"[9]. فَسَجّل عنده جماعة من الأهالي، فأمر العرفاء من كتامة بأن يعرفوهم بأعيانهم، ويرقب كل واحد منهم رجلاً من أولئك الْمُسَجّلين عنده، ثم أمرهم أنْ يأتوا في اليوم الثاني لأخذ الأرزاق، فلمّا حضروا قتلهم جميعاً وكانوا نحواً من ألف رجل، ثم أمر بجمع جثثهم ووضع عليها كرسيّاً وجلس فوقها، ثم أدخل وجوه أهل البلد عليه في حَالِهِ هذه، فنظروا إلى ما هَالَهُم من كثرة القَتْلَى، فَمَاتَ منهم ثلاثة أنفس من الخوف والرّعب حسب ما ذكر صاحب الرواية. ولَمّا مَثُلَ أهل البلد بين يديه سَبَّهُم وقال لهم: "إن لم تحضروني [أي تجلبوا إلَيّ] غداً مائة ألف مثقال قتلتكم أجمعين، فأحضروه إيّاه"[10].

وعلى ما يكون، فقد استطاع الفاطميّون ضَمّ إقليم برقة بأبسط المواجهات وأقل الخسائر، نتيجةً لانعدام التنسيق الجيد بين مركز الإمارة العباسية في مصر وقادتها العسكريّين في برقة. ولأهمية هذا الإقليم الجغرافية والاستراتيجية للعَبّاسيّين في مصر فقد حاول أمير مصر أبو المنصور تكين استرجاعه، وذلك بإعادة إرسال أحمد بن صالح أبي النّمر على رأس جيشٍ كبيرٍ إلى برقة. ويبدو أنّ حُبَاسة ورفيقه موسى بن عبد الرحمن الوادي قد وصلت إليهم أخبار ضخامة الجيش، فأرسلوا إلى الخليفة المهدي يطلبان الْمَدَد، فأرسل إليهم جيشاً على رأسه سليمان بن كافي الجيلمي، وعفيفان بن كردوس، فَسَارا من رَقّادة يوم الخميس في الخامس من شعبان، وحَثّا السّير إلى برقة لمواجهة الجيش القادم من مصر. وقد تقابلا معه بعد أنْ ضَلّا الطّريق بسبب ضباب كثيف في الجو، جعل جيشهما يصطدم فجأة مع الجيش العَبّاسي في الخامس والعشرين من رمضان سنة 301هـ/913م، ولحسن حَظّهما كان سيرهما على تعبئة الحرب، فوقع بينهما قتال كانت الغَلَبَة فيه على الجيش العَبّاسي، الذي انهزم وَوَلّى الدُّبُر[11]. ولم تَكْتَفِ القوات الفاطمية بقيادة حُبَاسة ورفيقه بهذا النّصر، بل تابعت المنهزمين في انسحابهم وقتلت الكثيرين منهم[12]. وهكذا استكان الوضع للعسكر الفاطمي الذي ظَلّ مُقيماً في برقة[13].

وقد استمرّ حُبَاسة في سياسة التّنكيل بأهالي برقة، حيث قتل كُلَّ من حارثٍ ونزارٍ ابْنَيْ حَمّال المزاتي مع مجموعة من أبنائهم وأبناء عَمّهم، كما باع نساءهم وأخذ جميع أموالهم، وذلك انتقاماً لِعُبَيدِ الله المهدي، الذي اتهمهم بأنهم سرقوا منه بعض المال والمتاع عند مروره عبر برقة في أثناء قدومه متخفياً من بلاد الشام خوفاً من العَبّاسيّين قاصداً إلى المغرب لمبايعته بالخلافة واستلام زمام الأمور بعد أنْ مَهّدَهَا له الداعية أبو عبد الله الشيعي[14]. ففي وقتها عندما طالبهم عُبَيدِ الله بما سُرِقَ منه، قام إليه رجل منهم فَشَتَمَهُ ولَطَمَهُ، فكان ذلك سبباً في قتل حُبَاسة لهم، على ما أمره به عُبَيدِ الله، وما نَصّهُ لهم من قصاص كما ذكر ابن عذاري. الذي أضاف أيضاً أنّ أهل برقة كتبوا إلى عُبَيدِ الله في مقر حكمه يشتكون إليه بما فعله فيهم حُبَاسة من قتلِ رجالهم وسَبي نسائهم وأخذِ أموالهم، فجاوبهم يعتذر إليهم، ويحلف أنه ما أمر بشيءٍ مما ذكروا إلّا في الأشخاص الثلاثة[15]، كما أنه كتب إلى حُبَاسة بالرّحيل عنهم[16].

وهكذا فإنّ حملة حُبَاسة بن يوسف الكتامي استطاعت السّيطرة على إقليم برقة الامتداد الطّبيعي لإقليم طرابلس. وكانت هذه الحملة بمثابة الخُطوة التّوسعية الأولى في المخطط الفاطمي-الذي أشرنا إليه في مقدمة البحث- والذي يَنُصُّ على إحكام سيطرتهم على طرابلس الغرب وبرقة أولاً، لكي تكون الطّريق ممهدة لهم للوصول إلى مصر. وهو جزءٌ من خطتهم العامة للإطاحة بالدولة العباسية في بغداد والسيطرة على الدولة الإسلامية كافة. ومثل هذا المخطط كان يستلزم دون شك إرسال الجيوش تِبَاعاً لِيَشُدّ الواحد منها أزر سابقه. وذلك بعكس حملة أبي القاسم على مدينة طرابلس التي أسلفنا الحديث عنها، فإنها كانت من باب إخضاع طرابلس للحكم الفاطمي الذي أصبحت تابعة له بحكم تبعيتها السّابقة للدولة الأغلبية التي أطاح بها الفاطميون واستولوا على أملاكها[17].

- ***تَمَرّد أهالي برقة على الحكم الفاطمي:***

عقب سيطرة الفاطميين على برقة خلفاً لسيطرتهم على طرابلس أصبحت الطّريق ممهدة لهم آنذاك لإرسال أول حملة لغزوِ مصر. ويبدو أنّ الخليفة

1لم يذكر الكندي (ت: سنة 350هـ/961م) عند نقله لهذا الخبر عن كيفية حصول حُبَاسة على هذا الكتاب، أو نسخة منه، وإنْ كُنّا نرى -إنْ صَحّت هذه الرواية-أنّه قد حَصَلَ عليه بواسطة عيون الفاطميين وجواسيسهم في مصر. حيث كان لهم فيها الكثير من الأعوان والدّعاة وبعضهم كان مُقَرّباً للطبقة الحاكمة فيها. وبفضل جهود هؤلاء ومساعيهم تمكن الفاطميّون من دخول مصر والسيطرة عليها بدون عظيم مَشَقّة. وللمزيد عن هذا الموضوع يُنظر: الأحمر، رمضان محمد رمضان: سياسة الفاطميين في احتلال مصر وتوطيد أركانهم فيها، دورية كان التاريخية، السنة السادسة، العدد الثاني والعشرون، ديسمبر 2013م، ص57.

2 مدينة برقة: كانت هي عاصمة إقليم برقة وأهم مُدُنه في العصر الإسلامي، ومنها اسْتَمَدّ الإقليم اسمه. ويُقَال لها اليوم مدينة الْمَرْج التي تقع في الشّمال الشّرقي من مدينة بنغازي بنحو 100كم. وهي مشهورة باتّساعها وخصوبة أرضها وكثرة مراعيها = ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى: كتاب الجغرافيا، حقّقه ووضع مقدمته وعَلّق عليه إسماعيل العربي، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1970، ص146. كذلك الطّاهر أحمد الزّاوي: معجم البلدان الليبية، طرابلس، مكتبة النور، ط1، 1968م، ص308-309.

3 الكندي: الولاة والقضاة، مصدر سابق، ص268. كذلك مفتاح، صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، بنغازي، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1978م، ص142.

4 ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، 170/1.

5 إدريس عماد الدين: عيون الأخبار، مصدر سابق، ص193.

6 الكندي: الولاة والقضاة، مصدر سابق، ص268.

7 ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، 170/1.

8 المصدر نفسه والجزء والصفحة.

9 نفسه.

10 نفسه.

11 إدريس عماد الدين: عيون الأخبار، مصدر سابق، 193-194.

12 ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، 170/1. كذلك سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب، مرجع سابق، 77/2.

13 إدريس عماد الدين: عيون الأخبار، مصدر سابق، ص194.

14 المصدر نفسه والصفحة. كذلك ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق، 453/6-454. ابن خلدون: تاريخ، مصدر سابق، 44/4. المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر سابق، 60/1-61.

15 لم يذكر ابن عذاري إلا اثنين فقط وهما حارث ونزار ابنا جمال المزاتي، وإن كان لابُدّ من ثالث فالأقرب أنْ يكون والدهما جمال المزاتي نفسه والله أعلم.

16 ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، 170/1-171.

17 البرغوثي، عبد اللطيف محمود: تاريخ ليبيا الإسلامي من الفتح الإسلامي حتّى بداية العصر العثماني، بيروت، دار صادر، 1973م، ص222.

المهدي قد رأى أنْ يَستغلّ النّجاح والانتصار الذي حَقّقه حُبَاسة في برقة[1]، ولاسيّما مع الضّعف الواضح في الدفاعات العباسية التي كانت سرعان ما تلوذ بالفرار عند المواجهات الجادة، فقرر أن يُكْمِلَ ذلك الانتصار بِطَرْقِ أبواب مصر نفسها. لذلك وجّهَ إليها حُبَاسة بن يوسف بعد أنْ صَرَفَهُ عن ولاية برقة، وأردفه بجيشٍ عَرَمْرَمٍ بقيادة ابنه أبي القاسم[2]، بالإضافة إلى أسطولٍ حَربيٍّ بلغت عدد مراكبه حوالي مائتي مركب[3]. وفي سنة 302هـ/914م استطاعت هذه الحملة الاستيلاء على الإسكندرية من غير قتال، فَتَوَجّه أبو القاسم إلى الْفَيُّوم[4] وأقام فيها، في حين ترك حُبَاسة في الإسكندرية[5]. إلّا أنّ الخليفة العَبّاسي سرعان ما تدارك الأمر فبعث إليهم القائد مؤنس الخادم[6] في جيشٍ كثيف قيل إنه بلغ أربعين ألفاً، استطاع هزيمة جيش حُبَاسة، مما أرغمه على الرّجوع إلى بلاد المغرب، وهناك قتله الخليفة المهدي على إثر رجوعه[7].

أَمّا أبو القاسم فإنه على إثر هزيمة حُبَاسة وضِيقِ الحال فلم يجد بدّاً من الانسحاب من الْفَيُّوم والعودة إلى المغرب، فلما وصل برقة هَنَّأَهُ أهلها بالسّلامة، فحاول أنْ يُطَيّب خاطرهم، فَزَعَمَ لهم أنه رجع في طلب حُبَاسة ليعاقبه على ما فعله بهم من تنكيلٍ وقتلٍ وغيره، كما أمرهم ببنيان ثلم مدينتهم وإصلاحه، ووَلّى عليهم رجالاً من كتامة وتركهم وذهب. ولكنهم لما علموا -بعد أيام-حال الهزيمة التي رجع بها من مصر، بادر عامة الناس في المدينة إلى الانتفاض، وقتلوا من كان عندهم من الكتامية، في حين وصل أبو القاسم إلى رقّادة في العاشر من ذي القعدة سنة 302هـ/914م[8].

وهكذا حدث للخليفة المهدي في برقة الأمر نفسه الذي حدث له سابقاً في طرابلس، فكان عليه أنْ يُوَاجه عصيان أهلها بعد فترة وجيزة من دخولها تحت حكمه. فَسَارَعَ وأرسل إليهم جيشاً على رأسه قائدٌ جديدٌ هو أبو مَدْيَن بن قَرُّوخ اللَّهِيصِيّ. ولكن مهمته لم تكن سهلة أبداً، حيث اختبر أهل برقة ما حَلّ بهم سابقاً على يد حُبَاسة، لذلك استماتوا في الدفاع عن مدينتهم، وتَحمّلوا مشاق الحصار لمدة ثمانية عشر شهراً، حتى "أفنت الحرب أكثر أهلها"[9]، كما ذكر ابن عذاري للدلالة على شِدّة ما عانوه من ويلات. وبعد أن تمكن أبو مَدْيَن من السّيطرة على المدينة سنة 304هـ/916م، انتقم من أهلها وأخذ أموالهم وحرق جماعة منهم بالنّار، وأرسل آخرين إلى عبيد الله -من الممكن أنْ يكونوا من قادة المقاومة أو من وجهاء القوم- في مقر حكمه فأمر بقتلهم. وقد حافظ أبو مَدْيَن على خُضُوع مدينة برقة للفاطميين وظَلّ قائداً عليها حتى وفاته سنة 306هـ/918م[10].

ومما سبق نجد أنّ برقة لم تُصبح ولاية فاطمية إلّا بعد أنْ تعرضت لأشد أنواع القهر والتنكيل والقتل مَرّتين. ونتيجةً لهذا الإخضاع المُميت لأهلها أنْ استتبت الأمور فيها للحكم الجديد، وقد ظَلّت برقة تُمثل للفاطميين طوال مُدّة إقامتهم في المغرب معسكراً وسِكّيناً مشحوذاً لغزو مصر. فمن خلالها تجمعت وتَنَسّقَت وسارت عساكر الفاطميين وجيوشهم في حملاتها المتكررة على مصر، إلى أنْ تُوّجَت في الحملة الرابعة -في عصر الخليفة المعز لدين الله (341-365هـ/952-972م) بقيادة جوهر الصِّقِلّي (312-381هـ/924-991م)- بدخول مصر والاستحواذ عليها سنة 358هـ/969م[11].

ثالثاً: خروج أهالي جبل نفوسة[12] على الفاطميين:

بعد المقاومة التي واجهها الخليفة المهدي من أهالي مَدينتي طرابلس وبرقة، لم تطل المدة حتى انفجرت في وَجْهِهِ مقاومة جديدة تُعَبّر عن عدم رضاها بحكمه، جاءت من جنوب إقليم طرابلس، متمثلة في أهالي مُدُن جبل نفوسة وقُرَاه، الذين كان جُلّهم في ذلك الوقت من المسلمين على المذهب الإباضيّ. ومن المعروف أنّ الإباضيين يَعدّون الشّيعة -وخصوصاً الإسماعيلية الفاطميين منهم- عَدوّهم اللّدود والأبدي، وذلك لأنهم أسقطوا إمامتهم المتمثلة في الدولة الرّستميّة (144-296هـ/761-908م) بتاهرت[13]، على يَدِ قوات أبي عبد الله الشّيعي سنة 296هـ/908م[14]. وبزوال الدولة الرستمية نهائياً، وسقوط عاصمتها تاهرت في أيدي الفاطميين وهي عاصمة الإباضية وتمركزها الرئيس، يكون الإباضية قد طَووا إمامة الظهور مؤقتاً لينتقلوا إلى إمامة الكتمان. حيث أصبحوا من غير كيانٍ سياسيٍّ، مما جعلهم يتفرقون في وارجلان ونواحيها، وجبل نفوسة، وبلاد الجريد، وجبل أوراس وغيرها من المناطق. وإنْ ظلّ جبل نفوسة معقلاً رئيساً لهم، حيث تمكن أهل الدعوة الإباضية فيه من الحفاظ على استقلاليتهم مُدّة طويلة من الزمن، وأصبحت الرابطة المذهبية والثقافية هي الرابط الوحيد بين التجمعات الإباضية في كل مكان[15].

وفي سنة 310هـ/922م، يخبرنا ابن عذاري أنّ نفوسة كانت قد خالفت على عبيد الله المهدي وقَدَّموا على أنفسهم شخصاً يُسَمّى أبا بَطّة[16]، الذي اشتدت شوكته بالتفاف الكثيرين حوله. فأرسل إليهم عبيد الله جيشاً كبيراً يقوده أحد الدُّعَاة وهو علي بن سليمان[17]. فلمّا قَرُبَ منهم بَيّتُوه وقتلوا كثيراً من جنده، وتَفَرّق الباقون وانهزموا عنه وتركوه، في حين عاد هو ومن بَقِيَ معه من الجند إلى مدينة طرابلس. ومن هناك راسل الخليفة المهدي يخبره بالهزيمة ويَسْتَنصِرُهُ. فَكَتَبَ عُبيد الله إلى عامِلِهِ على قابس علي بن أُفْلَمان، بأنْ يقتل كل من يمرّ به من الجند المنهزمين -لَعَلّه عقابٌ لهم لترك قائدهم وخذلانه في أرض المعركة، وعبرةً لمن تُسَوّلُ له نفسه الهروب من الجند الآخرين- ففعل عامل قابس ذلك. وفي الوقت نفسه أَمَدّ عُبيد الله علي بن سليمان بالجيوش، فَزَحَفَ بها على جبل نفوسة وحاصره حصاراً شديداً إلى أنْ

---

1 سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب، مرجع سابق، 78/3. كذلك عبد الله محمد جمال الدين: الدولة الفاطمية، ص104.

2 ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، 171/1.

3 ابن خلدون: تاريخ، مصدر سابق، 49/4.

4 الْفَيُّوم: ولاية غربية بينها وبين الفسطاط أربعة أيام، بينهما مفازة لا ماء بها ولا مرعى مسيرة يومين، وهي في منخفض الأرض كالدارة، ويُقال إنّ النيل أعلى منها = ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، مج286/4.

5 ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، 172/1.

6 مؤنس الخادم الملقب بالمظفر المعتضدي. أحد الخدام الذين بلغوا رتبة الملوك. كان من خدم المعتضد العباسي (279-289هـ/892-901م)، وكان أبيض البشرة فارساً شجاعاً من السّاسة الدُّهَاة. بقي ستين سنة أميراً وندب لحرب المغاربة العُبيديّين. ووَلّي دمشق للمقتدر ثم حاربه وقتل المقتدر وخلفه القاهر بالله (320-322هـ/931-933م)، فلمّا تمكن القاهر قتله = الزِّرِكْلي، خير الدين: الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، بيروت، دار العلم للملايين، ط15، 2002م، 335/7.

7الطّبري: الرُّسُل والْمُلُوك، مصدر سابق، 150/10. كذلك حسن، حسن إبراهيم: الفاطميّون في مصر وأعمالهم السّياسية والدينية بوجه خاص، ترجمه إلى العربية حسن إبراهيم حسن، القاهرة، المطبعة الأميرية، 1932م، ص82.

8 ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، 172/1.

9 المصدر نفسه، 175/1.

10 نفسه، 172/1، 173، 175، 181.

11 للمزيد من المعلومات عن جميع الحملات الفاطمية على مصر يُنظر: عبد الله محمد جمال الدين: الدولة الفاطمية، مرجع سابق، ص103-120.

12 جبل نفوسة: هو جزء من سلسلة جبال أطلس التي تمتد من الغرب إلى الشرق، وتبتدئ من بحر الظّلمات وتمر بمراكش والجزائر وتونس وطرابلس. ويبتدئ جبل نفوسة في طرابلس من الغرب من غربي نالوت وينتهي بحدود غريان الشرقية، وطول هذه المسافة حوالي 200كم. وكان جبل نفوسة ومازال موطناً للبربر ومحلّ إقامتهم الدائمة، وقد سُمّيَ نفوسة نسبةً إلى قبيلة نفوسة البربريّة التي كانت تسكنه ومازالت تسكنه، وهي من أكبر قبائل البربر. وفيه الكثير من الْمُدُن والْقُرَى والأراضي الفسيحة الخصبة والعيون الجارية والأشجار المثمرة = الطّاهر أحمد الزّاوي: البلدان الليبية، مرجع سابق، ص97.

13 تاهرت: مدينة قديمة وعريقة في جمهورية الجزائر الحالية، تقع شمال شرق مدينة تِلِمْسَان بحوالي 300كم. وقد عاشت تاهرت عصوراً مزدهرة في القديم والحديث لموقعها الممتاز في وسط شمال الجزائر. ولشِدّة إعجاب الناس بها وصفها بعض الرحالة بأنها عراق المغرب = العفيفي، عبد الحكيم: موسوعة 1000 مدينة إسلامية، بيروت، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2000م، ص159، 160.

14 المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر سابق، 65/1، 66.

15 مزهودي، مسعود: جبل نفوسة في العصر الإسلامي الوسيط (21-442هـ/642-1053م)، سلطنة عمان، مكتبة الضّامري للنشر والتوزيع، ط1، 2010م، ص207-241.

16لم تذكر المصادر الإباضية وغير الإباضية من هو الشّخص الذي يُكَنّى بـ"أبي بطّة" تحديداً، ولكن حسب الفترة المعنية من الممكن أنْ يكون هو أبا يحيى زكريا الأرجاني، الذي كان والياً على الجبل في تلك الفترة، وهو أحق في الدفاع عنه. وهذا ما يؤكده الشّماخي (ت: سنة 928هـ/1521م) عند حديثه عن أبي يحيى الأرجاني وفترة حُكْمِهِ بقوله: "وفيها غارت كتامة [جند الفاطميين] على الجزيرة فخرج إليهم [أي أبو يحيى الأرجاني] فهزمهم الله، وخرج إليهم مرة أخرى في قرب تركت فهزمهم الله، وفيها ضُرِبَ ومات... وكتامة جند عُبَيْدِ الله". وأيضاً في السّياق نفسه ذكر الشّماخي: "... أنّ أبا زكريا ابن أبي يحيى قد وَلّوه أمور المسلمين [أي إباضية جبل نفوسة]... فخرجوا إلى المسودة [أي الفاطميين] في الأشهر الحرام، فَهُزِمُوا ومات خَلْقٌ عظيم... وضُرِبَ أبو زكريا... فلمّا حضرته الوفاة قالوا من ترى لنا بعدك" = الشّماخي، أحمد بن سعيد بن عبد الواحد: كتاب السِّيَر، تحقيق أحمد بن سعود السّيَابي، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، ط2، 1992م، 207/1-208.

17 ورد عند الداعي إدريس عماد الدين (ت: سنة 872هـ/1467م) بأنّ قائد هذه الحملة الفاطمية هو سليمان بن كافي الإجّاني= عيون الأخبار، مصدر سابق، ص214.

استطاع اقتحام حصنه[1] ثم هَدَمَهُ، وقتل الرجال وسَبى النّساء[2]. كما غَنِمَ كثيراً من أموال نفوسة، وأرسل إلى المهدي يخبره بهذا النّصر، بكتابٍ وصله لاثنتي عشرة ليلة بَقِيَت من شهر شعبان سنة 311هـ/923م[3].

وبالرغم من نجاح الفاطميين في إخماد ثورة نفوسة وكسر شوكتها، إلّا أنهم لم تكن لهم محاولات جادة لإخضاع أهل الجبل سياسياً وإدماجهم في بقية ممتلكاتهم، حيث كان يكفيهم أنْ يخلدوا إلى الصّمت والسّكينة. لذلك عاد الإباضيّون يمارسون حياة مستقلة دون الاعتراف بالحكم الجديد[4]، وفي الوقت نفسه كان ضغط الفاطميين عليهم كافياً لصرفهم عن محاولة إقامة دولة إباضية في الجبل[5]. وبسبب ذلك نجد إباضية جبل نفوسة لا يُبَايعون إماماً بل يكتفون باختيار أحد رجالهم الأكْفَاء ليكون حاكماً يَتَوَلّى شؤون الجماعة، فَيَجِلّ المشاكل، ويُوَصّل الحقوق، ويُوَاجِه العدو، ويُوَجّه رَعِيّته باستشارة علمائها (العلماء الإباضية)، أي إنه بالجملة يقوم بجميع ما يقوم به الإمام بدون أنْ يَتَسَمّى إماماً[6].

وكان ما يحتاج إليه الفاطميّون هو تأمين خُضُوع المناطق السّاحلية من إقليمي طرابلس الغرب وبرقة، التي تُمَثّل العصب الحيوي بين إفريقية ومصر[7]. وبالقضاء على مقاومة نفوسة بالجبل تَمَهّدَت معظم أجزاء الإقليمين للخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي، وأصبح الطريق إلى مصر مُيَسّراً ممهداً. لذلك نرى أحد جيوش المهدي بقيادة مسرور بن سليمان، وفي السنة نفسها (311هـ/923م) بعد إخماد حركة نفوسة، يحاول تأمين الطّريق السّاحلي المُوَصّل إلى مصر بمهاجمة بعض الحُصُون الواقعة في منطقة الواحات من صعيد مصر[8]، قِبْلَي إقليم برقة في الجنوب الشّرقي منه، وتخريبها والعودة بعد ذلك إلى برقة[9].

رابعاً: رفض أهالي إقليمي طرابلس الغرب وبرقة الحكم الفاطمي:

بعد إخضاع طرابلس وإخفاق مقاومة برقة وفشل ثورة نفوسة سَئِمَت مناطق الإقليمين أو عجزت عن الانتفاض في وجه الفاطميين[10] وهو الأحرى؛ لما حَلّ بها من عقاب عقب كل انتفاضة من القوة العسكرية الضاربة للفاطميين، من تدميرٍ وقتلٍ وتشريدٍ وانتهاكٍ للحرمات وغيرها. لذلك عاشت النصف الأخير من ولاية الخليفة المهدي فترة سكون، أخلد فيها أهلها للهدوء، وتقبلوا عُمّال الفاطميين الشيعة وقُضَاتهم وجُبَاتهم بكل خُضُوع[11]. حتى إنّ أهل طرابلس لم يقبلوا إيواء ابن طالوت القُرَشِيّ[12]، حين ثار على الخليفة القائم عقب وفاة أبيه وتَوَلّيهِ الخلافة من بعده. حيث ادّعى ابن طالوت أنّه ابن الخليفة المهديّ[13] وأقنع بعض قبائل البربر بذلك، فَسَارَ بهم صوب مدينة طرابلس بأعدادٍ كبيرة لأخذها، فَقَاتَلَه أهلها وتمكنوا من ردعه وهزيمته وقتل جماعة من أصحابه. الأمر الذي شَكّكَ في صِحّة دعواه، فلمّا تَبَيّن لِأنصاره ومُتَتَبّعِيهِ كذبه وبُطْلَان ما ادّعَاه ثاروا عليه وقتلوه وأَتَوْا برأسه إلى الخليفة القائم[14]، تكفيراً منهم عن ذنبهم بانّباعهم له، وإعلاناً منهم على خُضُوعهم لسلطانهِ وللحكم الفاطمي.

وقد استمرّ الحال نفسه في بقية مُدُن الإقليمين من السّكينة والاستقرار طِوَال سِنِيّ الخلفاء الفاطميين بالمغرب الذين تلو الخليفة القائم، فلم نعد نسمع عن أيّ ثورات أو انتفاضات جديدة من أهالي طرابلس أو برقة في عصر الخليفة المنصور بنصر الله (334-341هـ/954-952م)، أو عصر ابنه المعز لدين الله قبل رحيله إلى مصر (341-361ه/952-971م). حيث كان الهدوء قد غلب على أرجاء الإقليمين، واستكانت الأحوال لولاة الفاطميين عليها. والحق يقال أنّ مُدُن الإقليمين كانت قد شهدت طِوَال تلك المدة فترة من الازدهار ناتجة عن اهتمام الفاطميين بها ولاسيّما مَدينتي طرابلس وبرقة عَاصِمَتَيْ الإقليمين[15]. وكذلك المدن السّاحليّة الأخرى التي سَتُوَفّر للفاطميين بعد سنوات طَريقاً سالكةً ومَحَطّاتٍ آمنة لجيوشهم تجاه حلمهم في السّيطرة على مصر[16]، التي منها سينطلقون للسيطرة على كل العالم الإسلامي. فلا ننكر أنّ إقليمي طرابلس وبرقة كانا دائماً موضع اهتمام الخلفاء الفاطميين طالما كانت أَمْنِيَّتهم هي الاستيلاء على مصر[17].

وما يهمنا في هذا الخُصُوص أنّ هذا الخُضُوع السّياسي لأهالي طرابلس وبرقة واستكانتهم للفاطميين لم يكن يَعني بالضّرورة أنّهم أصبحوا من الشّيعة أو أخذوا بعقائدهم التي فُرِضَت عليهم[18]، فقد ظَلّت برقة سُنِّيّة في معظمها وطرابلس ونفوسة إباضية في أكثرها. فالإخضاع السّياسي هو الشيء الوحيد الذي فاز به الفاطميّون في الإقليمين[19]. وهذا ما شهدت به الأحداث التاريخية التي جرت بعد ذلك، والتي أثبتت أنّ أهالي طرابلس وبرقة كانوا يتحينون الفرص ويقتنصونها للخروج عن حكم الفاطميين ومحاولة إسقاط دولتهم عن الإقليمين، ونَبْذِ مذهبهم ومعتقداتهم متى سنحت لهم الظروف بذلك.

1- في طرابلس:

ظهر رفض أهالي طرابلس للفاطميين ورغبتهم في الخروج عليهم، في الفرصة التي سنحت لهم في مذبحة الشّيعة التي جرت في القيروان عاصمة ولاية إفريقية في سنة 407هـ/1016م. وفيها انتفض أهالي القيروان وعامة

---

1 يرى الدكتور إحسان عباس أنّ المقصود بهذا الحصن هو مدينة جادو، المدينة الكبيرة الثانية في جبل نفوسة = تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتّى مطلع القرن التاسع الهجري، بنغازي، دار ليبيا للنشر والتوزيع، ط1، 1967م، ص82.

2 ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، 1/187-188.

3 إدريس عماد الدين: عيون الاخبار، مصدر سابق، ص214.

4 إحسان عباس: تاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص83. كذلك عبد اللطيف محمود البرغوثي: تاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص224.

5 عبد اللطيف محمود البرغوثي: تاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص224.

6 مُعَمّر، علي يحيى: الإباضية في موكب التاريخ (الإباضية في ليبيا)، د.م، مؤسسة تاوالت الثقافية، د. ت، 1/156. كذلك عبد اللطيف محمود البرغوثي: تاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص224.

7 إحسان عباس: تاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص83.

8 الصَّعِيدُ بمصر: بلادٌ واسعةٌ كبيرة فيها عِدّة مُدُن عظيمة، منها: أُسْوان، وهي أَوّله من ناحية الجنوب، ثم قوص وقفط وإخميم والبهنسا وغير ذلك. وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام: الصَّعيد الأعلى وحَدُّه أُسْوان وآخره قرب إخميم، والثاني من إخميم إلى البهنسا، والأدنى من البهنسا إلى قرب الفسطاط. وقيل إنّه تسعمائة وسبعٌ وخمسون قرية = ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، مج3/408.

9 ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، 1/188-189. كذلك إحسان عباس: تاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص83.

10 إحسان عباس: تاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص83. كذلك عبد اللطيف محمود البرغوثي: تاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص225.

11 صالح مصطفى مفتاح: ليبيا، مرجع سابق، ص149.

12 يُقَال إنّ اسمه محمدٌ وإنّه كان من بعض كُتّاب العراق، ثم صار ناحية طرابلس= إدريس عماد الدين: عيون الأخبار، مصدر سابق، ص263. كذلك القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، مصدر سابق، ص332.

13 في حين ذكر النّويري بأنّه زعم للبربر بأنه المهديّ نفسه وليس ابنه = النّويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق نجيب مصطفى فوّاز وحكمت كشلي فوّاز، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2004م، 28/72.

14 القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، مصدر سابق، ص332. كذلك ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق، 7/99. ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، 1/209. إدريس عماد الدين: عيون الأخبار، مصدر سابق، ص263-264

15 للمزيد من المعلومات في هذا الخُصُوص يُنظر: سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب، مرجع سابق، 3/277-279.

16 من أوجه ذلك الاهتمام أنّ الخليفة المعز كان قد أمر في سنة 355هـ/975م، بإنشاء الطّرق فيها وحَفْر الآبار وإقامة القُصُور لغرض إقامته على طول الطريق من المغرب إلى مصر عند رحيله إليها (النويري: نهاية الأرب، مصدر سابق، 28/75-76). وقيل إنه أمر باتخاذ قصر من كل ثلاثين ميلاً (56.550كم) ما بين داره بإفريقية وداره التي ستكون بمصر = ابن الخطيب، الوزير لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي الأندلسي: تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط (القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام)، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1964م، ص59.

17 سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب، مرجع سابق، 3/277.

18 كان أهالي الإقليمين قد عانوا ما عانوه -هم وأهل المغرب كافّة- من الفاطميين في فرض الرّسوم الشّيعية عليهم ولاسيّما في المبادئ الفقهية، وبجانب العبادات خاصة، ومطالبتهم بتطبيقها عملياً، والتّنكيل وقتل كل ما يخالفها، مثل إبطال صلاة التَّراويح، وإسقاط عبارة: "الصّلاة خير من النّوم" في صلاة الفجر، وزيادة عبارة: "حَيّ على خير العمل" في الأذان، والجَهْر بالبَسْمَلة في الصّلاة، وزيادة قُنُوت في صلاة الجمعة في الرّكعة الثانية، وإبطال صلاة الضُّحَى، وزيادة تكبيرة خامسة في صلاة الجنازة، وتأخير الصّلَوات عن أوقاتها... وغيرها من عبادات أهل السّنة ، وكل ذلك لفرض المذهب الشّيعي على الأهالي، ومحاولة إدخالهم فيه، وفي المقابل السّعي لتحجيم معتقداتهم ومذاهبهم = حواله، يوسف بن أحمد: الحياة العلمية في إفريقية "المغرب الأدنى" منذ إتمام الفتح وحتّى منتصف القرن الخامس الهجري (90/450هـ)، مَكّة المكرمة، جامعة أم القرى، ط1، 2000م، 2/73.

19 إحسان عباس: تاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص79.

الناس وقتلوا كل من يعتنق المذهب الشّيعي في المدينة، ووضعوا السّيفَ فيهم، فقتلوا منهم ما يزيد على الثلاثة آلاف نفر، لدرجة أن سُمِّيَ المكان الذي قُتِلوا فيه بـ "بركة الدّم"[1].

وكان السّبب في تلك المذبحة حسب ما رَوَى ابن عذاري أنّ المعز بن باديس (406-453هـ/1015-1061م)، والي الفاطميين على بلاد المغرب، كان قد خرج في بعض الأعياد إلى الْمُصَلّى في زينته وحشوده، وهو غلام، فَكَبَا به فرسه، فقال عند ذلك على حسب تربيته السُّنّيّة: "أبو بكر وعمر"، وكأنه يستنجد بهما، فَسَمِعَهُ الرجال الشّيعة الذين كانوا في عسكره، فهاجموه محاولين قتله، ولكن تَصَدّى لهم عبيده ورجاله ومن كان يكتم السُّنَّة من أهل القيروان ووضعوا السّيف في الشّيعة، ومنها بدأت المذبحة التي انتشرت في جميع نواحي إفريقية[2]. وقد انتشرت عدوى قتل العامة للشيعة بعد هذه الحادثة، وخرجت من القيروان إلى المهدية وسائر البلاد، فَقُتِلُوا حيث وُجِدُوا وأُحْرِقُوا بالنّار فلم يُتْرَكْ أحدٌ منهم بمُدُن إفريقية إلّا من هرب واختفى[3]. وكان أهل الشّيعة في المغرب يُسَمّون بالْمُشَارقة نسبة إلى أبي عبد الله الشّيعي الذي كان قد قَدِمَ من الْمَشْرِق[4]، ولهذا عُرِفَت هذه الوَقْعَة في إفريقية بـ"وَقْعَة الْمُشَارقة"[5].

وكانت طرابلس من الْمُدُن التي وصلت إليها موجة القتل، وكان الذي تَوَلّى أمر قيادة الأهالي فيها وقتلهم للشيعة الفقيه والعالم الطرابلسي أبا الحسن علي بن الْمُنَمَّر[6]، الذي يُعَدّ أول من أظهر السُّنَّة في طرابلس جَرّاء هذه الحادثة، وقطع من الأذان "حَيّ على خير العمل"، وأَذّن في ذلك اليوم أذان أهل السُّنَّة بنفسه[7]. حيث إنّ الفاطميين عقب قيام دولتهم في المغرب كانوا قد زادوا هذه اللّفْظَة في الأذان[8]، وقتلوا كثيراً من الناس كانوا قد أسقطوها من أذانهم سواء تَعَمُّداً أو نسياناً. وكان لابن الْمُنَمَّر الفضل في رَدّ ما طَمَسَهُ الفاطميّون من معالم أهل السّنّة في طرابلس بإعادة بعض الشّعائر التي منعوها، فكان أول من أقام للناس بطرابلس صلاة القيام، وكان رسم هذه الصلاة قد انْمَحَى من إفريقية في عصر الفاطميين[9]، فَصُلّيت في الجامع الأعظم[10] ولم تكن قبل ذلك قد صُلِّيَت فيه لأنه من تشييد الفاطميين. وأيضاً هو أول من أطلق للناس صلاة الضُّحَى جهاراً ولم يكن أحد في زمن الفاطميين يُصَلّيها إلّا مستخفياً، فإن علموا به قتلوه[11]. وهكذا كان لابن الْمُنَمَّر الفضل في قيادة الثورة الشعبية لأهالي طرابلس ضد الفاطميين، التي احتلّ فيها الحرص على العقيدة المقام الأول.

أمّا والي الفاطميين على المغرب المعزّ بن باديس فقد كان موقفه سلبياً تجاه هذه المذبحة، ولم يتخذ أيّ إجراءات جِدّيّة تُفيد رفضه لما حدث للشيعة فيها، وهو من المفترض أنْ يكون مُتَمَذْهِباً على مذهبهم على غرار خلفائه وأُولِي نعمته الفاطميين. فكانت هذه الواقعة أول بادرة عَلَنيّة تَدلّ على قابلية بَني زيري ورغبتهم لِنَقْضِ تبعية إفريقية والمغرب عن الفاطميين في مصر، ولاسيّما في وجود حاضنة شعبية كبيرة تُبَارك خُطَاهم وتؤيدهم إن خرجوا عليهم، وهذا ما تمخّضت عنه الأحداث فيما بعد.

2- في برقة:

الشيء نفسه الذي حصل في طرابلس حصل أيضاً في برقة، من رفض الأهالي للفاطميين وتحيّنهم الفرصة لإسقاط حكمهم ونَبذِ مذهبهم، الأمر الذي جعلهم يَقبلون دعوة الوليد بن هشام -الذي يَنسب نفسه لبَني أمية بالأندلس[12]، والمعروف في كتب التاريخ بأبي رَكْوَة لرَكْوَةٍ كان يحملها في أسفاره على عادة الصّوفيّة[13]- للخروج على الفاطميين في برقة ومحاولة افتكاك مُلكهم في مصر. لذلك التَفّوا عليه واحتضنوا ثورته التي انطلقت في سنة 395هـ/1004م. وكان السبب المباشر الذي مَهّدَ لقيامها ونزع فتيلها، هو ضجر الجالية الأكبر من سُكّان برقة في ذلك الوقت -المتمثلة في قبيلة بَني قُرّة العربية[14]- من سياسة الخليفة الفاطمي معهم، وهو الحاكم بأمر الله (386-411هـ/996-1020م)، الذي كان قد أسرف في النّيل من قُوّاد دولته وزعمائها، مُكْثِراً من القتل فيهم والحبس ومصادرة الأموال، وكانت سائر القبائل من رعيته تعيش تحت حُكمِهِ في ضَنكٍ وضِيقٍ[15]. وقد كانت موجة عُنْفِهِ هذه قد وصلت إلى بَني قُرّة في برقة، الذين كان قد أكثر من الإيقاع بهم، وتطاول في قتلهم وحرق رجالهم بالنار، لذلك خلعوا طاعته[16].

وقُبَيل اندلاع الثورة وتحديداً سنة 394هـ/1003م، كان الخليفة الحاكم قد آذاهم وحَبس جماعة من أعيانهم وقتل بعضهم الآخر، فكانت قبيلة بَني قُرّة مثلها مثل غيرها من القبائل التي عاشت في عصره في كدرٍ ومُعَاناة بسبب إسرافه في القتل والتّنْكيل، لذلك كانت تتمنى زوال مُلْكه ومستعدة للخروج عليه في أيّ لحظة، فكانت بهذا تُرْبَة خِصْبَة وبيئة ملائمة لاحتضان أيّ ثورة على الفاطميين. وقد أحسن أبو رَكْوَة استغلال تلك الأجواء ولم يتعب كثيراً في إقناعهم بمشروعه السياسي حَتّى انقادوا له والتَفّوا عليه وبايعوه وخاطبوه بالإمامة[17]. ولم يكن عرب بَنو قُرّة من سُكّان برقة هم الذين انضموا فقط إلى أبي رَكْوَة في ثورته بل انضم إليه أيضاً باقي أهلها من البربر من قبائل لواتة ومزاتة وزناتة، الذين أرسل إليهم أبو رَكْوَة بدعوته فاستجابوا له[18]. وذلك على الرغم من أنه كانت بين بَني قُرّة وزناتة حروب ودماء ولكنهم اتفقوا على الصّلح للمصلحة العامة ولمنع أنفسهم من الخليفة الفاطمي[19]. وبهذا الْتَفّت العرب والبربر في برقة على أبي رَكْوَة، واتفقوا على محاربة الفاطميين بها ومحاولة إسقاط حكمهم عنها.

وبدون التوغل كثيراً في مجريات تلك الثورة، استطاع أهالي برقة بقيادة أبي رَكْوَة من السّيطرة على مدينة برقة مَقَرّ حكم عامل الفاطميين على الإقليم،

1 ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، 274/1.
2 المصدر نفسه، 273/1-274.
3 الدّبّاغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأَسَيدي: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلّق عليه أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي، تحقيق وتعليق محمد ماضور، تونس-مصر، المكتبة العتيقة-مكتبة الخانجي، 1978م، 154/3.
4 ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق، 114/8.
5 التجاني: الرحلة، مصدر سابق، ص265.
6 هو علي بن محمد المنتصر بن الْمُنَمَّر الطرابلسي أبو الحسن، وُلِدَ بطرابلس سنة 348هـ/959م، ونشأ بها وحفظ القرآن وأخذ مبادئ العلوم عن بعض شيوخها. كان من أعيان العلماء المبرّزين، بارعاً في الحديث وما يتعلق به، عارفاً بالنحو واللّغة، والفقه، والأصول وغيرها من العلوم. وكان من المشهورين في علم الفرائض والهيأة والميقات، وله تآليف في الحساب والأزمنة، وله كتاب الكافي في الفرائض. تُوُفِّيَ سنة 432هـ/1040م، في غنيمة من قرى مَسَلاّتة، وقبره معروف هناك = الطّاهر أحمد الزّاوي: أعلام ليبيا، بيروت، دار المدار الإسلامي، ط3، 2004م، ص272، 273.
7 التجاني: الرحلة، مصدر سابق، ص 265-266.
8 يوسف بن أحمد حواله: الحياة العلمية، مرجع سابق، 73/2.
9 التجاني: الرحلة، مصدر سابق، ص 265-266.
10 جامع طرابلس الأعظم: هو جامع مُتّسع على أعمدة مرتفعة، كان به منار مُتّسع مرتفع قائم من الأرض على أعمدة، مستديراً فلمّا تم نصفه كذلك سُدّس، كان بناؤه في العام الْمُكَمّل للمائة الهجرية الثالثة (300هـ/912م)، علي يد الخليل بن إسحاق = التجاني: الرحلة، مصدر سابق، ص253.
11 التجاني: الرحلة، مصدر سابق، ص 265-266. كذلك ابن ناصر الدّرْعِي، أبو العباس أحمد بن محمد: الرحلة الناصريّة 1709-1710م، حقّقها وقدّم لها عبد الحفيظ ملوكي، أبو ظبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1، 2011م، ص189-190.
12 تَعَدّدَت الروايات التاريخية واختلفت في تحديد نسب أبي ركوة إلى الأمويين وإلى أيّ بيت من بيوتهم ينتمي، كما أنّ هناك روايات شَكّكَتْ في صِحّة نسبه إليهم، وللاطلاع على هذه الروايات والتوسع فيها ينظر:
Alahmar, Ramdan M Ramdan and Ahmed Faisal bin Abdul Hamid: "The Revolution of Abu Rakwah Against the Fatimids In Barca And His Attempt to Overthrow Their Rule in Egypt", JOURNAL AL-MUQADDIMAH, Department of Islamic History and Civilisation in Malaya University, Volume 5, Issue 1, June, 2017, pp. 3-5.
13 ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصَحّحه نعيم زرزور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1992م، 53/15. كذلك ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق، 42/8. ابن خلدون: تاريخ، مصدر سابق، 73/4.
والرَكْوَة: هي إناء صغير من جلد يُشْرَبُ فيه الماء = ابن مَنْظور، عبد الله بن محمد بن الْمُكرّم بن أبي الحسن بن أحمد الأنصاري الخزرجي: لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، القاهرة، دار المعارف، د.ت، مج3، 1722/19 (مادة رَكَا).
14 بَنُو قُرّة: هم بطن من بطون هلال بن عامر بن صعصعة، من العدنانية = كَحّالة، عمر رضا: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط8، 1997م، 944/3.
15 ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق، 42/8.
16 المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر سابق، 60/2.
17 ابن الجوزي: المنتظم، مصدر سابق، 54/15. كذلك ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق، 42/8-43.
18 المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر سابق، 60/2.
19 ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق، 42/8.

وذلك بعد حصارها حصاراً شديداً، وبعد مُنَاجَزات حربية عِدّة لاقوا فيها مقاومة عنيفة من بعض أهالي المدينة المناصرين للفاطميين، ومن الحامية الفاطمية الموجودة بها بقيادة واليها صندل الأسود[1]. وقد تمكن الثّوار خلالها من هزيمة نجدة وَفَدَتْ للمدينة بقيادة شخصٍ يُدْعَى ابن طيبون، كما هزموا جيشاً للفاطميين بقيادة غُلامٍ تُركيّ يُدْعَى ينال الطويل[2]، كان قد أرسله الخليفة الفاطمي من مصر بغرض القضاء على الثورة وفَكّ الحصار عن المدينة، إلّا أنّ الأمر انتهى بدخول الثوار للمدينة بعد هروب واليها ومن معه عبر البحر إلى مصر[3].

وبعد هذا الانتصار استفحلَ أمر أبي رَكْوَة وقَوَتْ شوكته وأخذ يعد العدة للتوجه إلى مصر، وفي المقابل أَحَسّ الخليفة الحاكم بخطورة الأوضاع فَنَدَبَ لقتاله القائد أبا الفتوح الفضل بن صالح[4]، وذلك في ربيع الأول من سنة 396هـ/1005م، ودَعَمَهُ بالعتاد والعساكر. وبعد حروب ومعارك عدة جرت بين الطرفين دارت فيها الدوائر في أولها على الفضل بن صالح ومن معه من القادة الفاطميين -حيث استطاع أبو رَكْوَة ومن معه هزيمته في عدة وقعات-إلا أنّ الحَظَّ لم يلبث أنْ ابتسم للفضل، وذلك مع التدبير الجيد واستخدام الحيلة والدّهاء حتى تمكن من الانتصار في معركة طاحنة فاصلة كانت يوم الجمعة الموافق: الثالث من ذي الحجة من سنة 396هـ/1005م، بموضع من أرض الفَيّوم يُعْرَفُ بـ "رأس البركة"، التي انتهت بهزيمة أبي رَكْوَة ومن معه من العرب، ومقتل أكثر البربر الذين كانوا في جنده[5]. ولم تطل المدة حتى استطاع الفضل القبض على أبي رَكْوَة الذي وُجِدَ مختبئاً في بلاد النّوبة[6]، واقتاده أسيراً إلى الخليفة الحاكم بمصر، وبعد التشهير به وإذلاله -بعرضه على الناس في شوارع مدينة القاهرة-ضُرِبَتْ عُنقه، ثم صُلِبَ جسده، وحُمِلَ رأسه إلى الخليفة الحاكم[7].

وهكذا انتهت هذه المحاولة من أهالي برقة -سواء من عرب بَني قُرّة أو من بربر زناتة وغيرهم-للقضاء على الحكم الفاطمي بالإقليم بالفشل والهزيمة. ولكنها لم تكن آخر المحاولات للخروج من ربقة الخضوع للحكم الفاطمي، حيث ظَلّ بنو قُرّة في برقة مَحَلّ إزعاجٍ للفاطميين ومَصْدَرَ قلق وخطر على حكومتهم في الإقليم، وهذا ما شهدت به الأحداث التاريخية العديدة التي جرت في السنوات التي تلت ثورة أبي ركوة في برقة، والتي لا يَتَّسَع المجال هنا لذكرها وسرد وقائعها[8]، وإن كان يُفْهَمُ منها أنّ إقليم برقة كان فعلياً يخضع لهَيمنة بَني قُرّة وسطوتهم، واسمياً يتبع لِبَني زيري تحت مِظَلّة الخلافة الفاطمية[9].

2. الخاتمة:

بعد هذا الحراك الشّعبي الكبير الذي شهدته طرابلس الغرب وبرقة وغيرها من مُدُن إفريقية والمغرب، وتململهم الواضح من الحكم الفاطمي ورفضهم للمذهب الشيعي الذي فُرِضَ عليهم قصراً، بدأت العلاقات بين بَني زيري والخلافة الفاطمية في التَّهَلْهُل تدريجياً، ولم تلبث أنْ انتهت بالانفصال. حيث إنّه في سنة 440هـ/1048م، أَمَرَ والي بلاد المغرب المعز بن باديس بقطع الدّعوة عن الشّيعة الفاطميين ولعنهم في الْخُطَب وخلعهم، فَقُطِعَت الخطبة عن الخليفة الفاطمي في مصر آنذاك المستنصر بالله (427-487هـ/1035-1094م) من منابر المساجد في إفريقية، وأُحْرِقَت رَايَاتُهُ[10] وبُنُودُه[11]. كما أمر المعزّ في سنة 441هـ/1049، بتبديل السِّكَّة، ومَحْوِ أسماء الخلفاء الفاطميين من العملة الموجودة وإعادة سَكّها من جديد، وأشاع في رَعِيّته بزوال أسمائهم من جميع الدّنانير والدّراهم في جميع الولايات التابعة له بما فيها طرابلس وبرقة، كما نَادى مُنَاديه في الناس بأنه: "من تَصَرّف بمالٍ عليه أسماء بَني عُبَيْد[12] نَالَتْهُ العقوبة الشّديدة"[13]. وفي سنة 443هـ/1051م، تَمَخّضَ انفصال المعز عن تبعية الفاطميين بالانضواء تحت عباءة الخلافة العبّاسية، فَصَدَرَت أوامره بلبس السّوَاد[14]، والخطبة للخليفة العبّاسي أبي جعفر عبد الله القائم بأمر الله (422-467هـ/1030-1074م) على منبر جامع القيروان، وفي المقابل "أُخْزَى بَني عُبَيد الشّيعة ولعنهم"[15].

وقد نالت خُطُوات المعز هذه رِضَا أهالي طرابلس واستحسانهم، وفي برقة التي كانت واقعياً خارج نطاق السّلطتين الشّرعيتين سواء في إفريقية أو مصر متمتعةً بحكم شبه استقلالي تحت نفوذ قبيلة بَني قُرّة، فنجد شيخها جَبَارة بن مختار بن قاسم يُرَحّب بدعوة المعز بن باديس لقطع الخطبة عن الفاطميين في إفريقية والمغرب، فَيُرْسِلُ إليه مكاتبة في القيروان تُفيد بالسّمع والطاعة له، ويخبره فيها بأنه وأهل برقة قد أحرقوا المنابر التي كان يُدْعَى منها للفاطميين، كما أحرقوا راياتهم، وتبرؤوا منهم، ولعنوهم على منابرهم، وفي الوقت نفسه دعوا للخليفة القائم بأمر الله العبّاسي[16]. ولكن جَبَارة وقومه ما كانوا يعلمون أنهم سيكونون بعد مُدّة بسيطة موجة في ذلك الطّوفان

1 لا نعرف عنه شيئاً إلا أنه كان والياً على برقة في سنة 384هـ/994م، وقد ظَلّ على ولايتها إلى أن أُعْفِيَ منها وَوُلِّيَ مكانه يانس الصّقلّي سنة 388هـ/998م، ثم أُرْجِعَ إليها مرة ثانية سنة 390هـ/999م، بعد أن صُرِفَ منها يانس = ابن خلدون: تاريخ، مصدر سابق، 75/4. كذلك المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر سابق، 281/1. المقريزي: الخِطَط، مصدر سابق، 400/2.

2 ورد اسمه عند ابن خلدون "أنيال الطويل" = (تاريخ ابن خلدون، مصدر سابق، 73/4). ويبدو أنه أحد الأتراك الذين اصطنعهم الخلفاء الفاطميون في خدمتهم وأدخلوهم في جيوشهم، فأصبحوا يمثلون طائفة لا بأس بها في القاهرة لها نفوذها في الدولة، ابتداءً من عصر الخليفة الحاكم وتحديداً بعد تولية أبي الفتوح بَرْجوان في قصر الحاكم، واستمرّ نفوذهم مجتازين الطوائف الأخرى إلى أن تمكنوا من الهيمنة على الدولة زمن الخليفة المستنصر بالله الأحمر، رمضان محمد رمضان: الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية (358-567هـ/969-1171م)، القاهرة، شركة القدس للنشر والتوزيع، ط1، 2012م، ص47-54.

3 الأنطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى: تاريخ الأنطاكي"المعروف بِصِلة تاريخ أوتيخا"، حقّقه وصنع فهارسه عمر عبد السلام تدمري، طرابلس الشام، جرّوس برسّ، 1990م، ص260-263.

4 هو القائد أبو الفتوح الفضل بن عبد الله بن صالح، المعروف بـ"الوَزيري". كان من الأمراء الذين يسيرون في ركاب الخليفة العزيز بالله إذا خرج في المواكب. وَلّاه العزيز بلاد الشام سنة 368هـ/978م، ومَكَثَ فيها لِعِدّة سنوات. وفي أواخر عهد العزيز تَوَلّى المحاسبة في وجوه الأموال. وبعد وفاة العزيز انتقل لخدمة ابنه الحاكم ووصل إلى مَرَاتب رفيعة في دولته، وقد أعطاه الحاكم الأموال والإقطاعات ولكن لم يلبث أن قتله بعد ذلك شَرّ قتله = ابن الصّيْرَفي، أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان: الإشارة إلى من نال الوزارة "نُشِرَ معه في الكتاب نفسه وللمؤلف نفسه كتاب القانون في ديوان الرسائل"، حَقّقها وكتب مقدمتها وحواشيها ووضع فهارسها أيمن فؤاد سَيّد، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1990م، ص55. المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر سابق، 146/1، 149. حسن إبراهيم حسن: الفاطميون، مرجع سابق، ص158-159.

5 الأنطاكي: تاريخ أوتيخا، مصدر سابق، ص265-266. كذلك المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر سابق، 61/2-62.

6 النُّوبَة: بلادٌ واسعةٌ عريضةٌ في جنوبي مصر، مبتدأ بلادهم بعد مدينة أُسوان مباشرةً. عاصمتها مدينة دُمُقْلة. وهي بلاد إبل وأبقار، وبها الحنطة (القمح) والشعير والذرة والنخل والكروم والأراك والأُترنج. وأهلها نصارى ذو شدة في العيش، يُجْلَبُ منهم الرقيق لِيُبَاع في مصر = ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، مج309/5.

7 المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر سابق، 64/2-65.

8 للمزيد عنها ينظر: المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر سابق، 82/2-83، 92، 110، 111. كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، 260/1-261. ابن خلدون: تاريخ، مصدر سابق، 24/6. المُسَبّحي، عزّ الملك محمد بن عُبَيد الله بن أحمد: الجزء الأربعون من أخبار مصر، حَقّقه وكتب مقدمته وحواشيه ووضع فهارسه أيمن فؤاد سيّد وتَيَاري بَيَانكي، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1978م، 27/1، 28.

9 حيث أضاف الخليفة الحاكم في سنة 403هـ/1012م برقة بجميع أعمالها إلى والي إفريقية باديس بن المنصور بن بُلُكين (386-406هـ/996-1015م)، بسجلاتٍ أرسلها إليه مع هديّةٍ جَليلةٍ إلى مقر حكمه في القيروان. وباديس بعد تكليفه بأمر برقة أرسل عامله عليها، وهو حميد بن تَمُوصَلّت، فجاءها على رأس جيشٍ سنة 404هـ/1013م، واستلمها من عاملها الفاطمي خود الصّقْلبي الذي رجع إلى مصر = ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، 259/1. كذلك المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر سابق، 99/2، 104.

10 الرّايات: مفردها راية، وهي التي يتولّاها صاحب الحرب ويُقَاتل عليها، وإليها تميل المقاتلة. وهي قطعة ملونة من إحدى أنواع الأقمشة سواء من الحرير أو غيره، تُعقَد على الرّمح وتُتْرَكُ تصفقها الرياح. وهي بذلك على عكس اللّواء الذي يُعْقَد على طرف الرمح ويُلْوَى عليه. كما أن اللّواء يَعدّ رمزاً للجيش كله ودليلاً على مركز القائد العام، في حين الرّاية تعني عدد الكتائب الموجودة في هذا الجيش، فالجيش به لواءٌ واحدٌ والكثير من الرايات = أحمد، زهير: رايات العرب والمسلمين وبنودهم وأعلامهم وبيارقهم، مجلة المورد، الجمهورية العراقية، وزارة الاعلام، المجلد الخامس، العدد الثالث، 1976م، ص41، 42، 46.

11 ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، 277/1-278.

12 نسبةً إلى عُبَيْد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ومؤسس دولتهم.

13 ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، 278/1-279.

14 كان اللّون الأسود شعار الدولة العباسية وبه عُرِفَت منذ قيامها سنة 132هـ/749م. في حين كان الفاطميون على نقيضهم قد اتخذوا اللون الأبيض شعاراً لدولتهم. وكان كل من دعا للدولة العلوية قبل الفاطميين يتخذ البياض شعاراً له (أحمد زهير: رايات العرب والمسلمين، مرجع سابق، ص45-47).

لذلك اتخذ الفاطميون الرايات البيضاء شعاراً لهم وقد سُمّيت لهذا السّبب "مُبَيّضة"، مخالفة للعباسيين الذين سُمّيت راياتهم "مُسَوّدة"، أي سوداء = ماجد، عبد المنعم: نُظُم الفاطميين ورُسُومهم في مصر، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، 1985م، 214/1.

15 ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، 280/1.

16 ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، 280/1.

العارم من القبائل العربية، الذي خرج من مصر وامْتَدّ على برقة واسْتَمَرّ يهدر حتى بلغ أقصى المغرب[1].

حيث لم يسكت الخليفة الفاطمي المستنصر بالله على ما جَرَى من خلع حكمه عن إفريقية والمغرب، فكانت رَدّة فعله على تَصَرّف المعز بن باديس -بعد لم يمتثل لتهديداته بالعودة إلى الطّاعة والولاء مثل آبائه الذين سبقوه[2]، وبنصيحة من وزيره اليَازوري[3]- بأنْ أطلق العنان للقبائل العربية من رياح وزغبة وعدي بطون من بَني عامر بن صَعْصَعَة، الموجودة في صعيد مصر، وفتح الطريق أمامها لاكتساح المغرب، وأباح لها من برقة إلى ما بعدها وأعانهم على ذلك بالأموال[4]. وذلك للانتقام من المعز والقضاء على سلطانه في المغرب. وبهذا خرج المغرب الإسلامي -بما فيه إقليما طرابلس الغرب وبرقة-نهائياً عن سلطان الفاطميين، الذي كان موجوداً فيها فعلياً وكذلك اسمياً لحوالي قرنٍ ونصفٍ من الزمان، وبدأت في المنطقة حقبة جديدة مغايرة عنوانها هيمنة القبائل العربية من بَني هلال وسليم[5].

3. النتائج:

في هذا البحث التاريخي، الذي سَلّطْنَا فيه الحديث عن تاريخ التَّوَسّع الفاطميّ في إقليمي طرابلس الغرب وبرقة، وكيفية تعامل أهالي الإقليمين مع هذ التّوَسّع والوجود الفاطمي، واتفاقهم فِطرياً وعَفويّاً -على الرغم من اختلاف مذاهبهم-على مقاومته ولاسيّما أنه قد تَخَلّله خطرٌ أعظمٌ على معتقداتهم الدينية، بما للفاطميين من معتقدات شيعية ورسوم حاولوا فرضها على أهالي الإقليمين وغيرهم من أهالي بلدان المغرب الإسلامي وأقاليمه. ومن خلال الخوض في موضوع هذا البحث والتعرف على تفاصيله توصلت الدراسة إلى بعض النتائج التي يمكن اختزالها في الآتي:

1- مَثّل إقليما طرابلس الغرب وبرقة أهمية جغرافية واستراتيجية وسياسية كبيرة لمشروع الفاطميين العسكري والسياسي والمذهبي في المغرب الإسلامي ومشرقه. فكانا حلقة الوصل بين المغرب والمشرق الإسلامِيَّيْن، والجسر الأرضي الوحيد الآمن لتحقيق أحلام الفاطميين وأمانيهم الواسعة، فكان نجاح مشروع الفاطميين في المنطقة متوقفاً على السيطرة على الإقليمين والمحافظة على استتباب الأمور فيهما.

2- أنّ سُكّان إقليمي طرابلس الغرب وبرقة لم يخضعوا لحكم الفاطميين وسلطانهم إلا بقوة السّلاح وبعد عِدّة ثورات منهم استطاع الفاطميّون إخمادها بالقوة والعنف. كما أنّ مقاومة الأهالي للفاطميين لم تفتر طوال مُدّة حكمهم المباشر أو غير المباشر على الإقليمين، إلى أنْ تُوِّجَتْ في آخرها بترحيبهم وانضمامهم لقرار والي الفاطميين على إفريقية والمغرب -المعز بن باديس-بخلع الحكم الفاطمي والخطبة للخليفة العباسي. الأمر الذي نتج عنه اجتياح عرب بَني سليمٍ وهلالٍ لبلاد المغرب الإسلامي، وانتهاء الحكم الفاطمي عنها تماماً.

3- كما تَوَصّلت الدراسة إلى أنه بالرّغم من نجاح الفاطميين في إخضاع أهالي الإقليمين سياسياً في معظم الأوقات التي حكموا فيها الإقليمين (حوالي 146 سنة هجرية في طرابلس، و142 سنة هجرية في برقة)، إلا أنهم لم يستطيعوا إخضاعهم مَذهبياً. حيث لم يَلْقَ المذهب الشّيعي قَبُولاً بين سُكّان الإقليمين وانتشاراً، وفي المقابل ظَلّ المذهب المالكي راسخاً في قلوبهم، بالإضافة إلى المذهب الإباضي. لذلك كان أهالي الإقليمين على استعدادٍ دائمٍ -متى سنحت لهم الفرصة-لِمَحْو مظاهر التَّشَيّع من حياتهم التي فرضها عليهم الفاطميّون بالقوة.

4. التوصيات:

تُوَصّي هذه الدراسة بعد الانتهاء منها وعرض نتائجها، على ضرورة تسليط الضوء على موضوع مهم ومفيد، يُعتبر مُكَمّلاً لموضوع دراستنا هذه وفيه مجال للبحث والتمحيص والاستنتاج، وهو محاولة معرفة الأسباب التي أَدّت إلى عدم تَأَثّر معظم أهالي إقليمي طرابلس الغرب وبرقة بالدّعوة الفاطمية الشّيعية وفي المقابل ثبات نفوسهم على المذهب السُّنِّي وبالخُصُوص المالكي، إلى جانب المذهب الإباضي في جبل نفوسة ونواحي طرابلس. فإنّ دراسة مثل هذا الموضوع التاريخي وما نستخلصه منه من عِبَر ونتائج، ربما يُفيدنا حالياً وفي المستقبل أيضاً في كيفية التمسك بهويتنا السّمحة والحفاظ على نقاء ديننا الإسلامي وتأمينه من التّيارات الدينية الشاذة والمتطرفة.

والله من وراء القصد وهو وَليّ التوفيق...

د. رمضان محمد رمضان الأحمر

5. قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

1. - ابن الأبّار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي: الحُلَّة السّيَرَاء، حقّقه وعلّق حواشيه حسين مؤنس، القاهرة، دار المعارف، ط2، 1985م.
2. - ابن أبي دينار، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني: كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تونس، مطبعة الدولة التونسية، ط1، 1386هـ.
3. - ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني: الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفدا عبد الله القاضي وراجعه وصَحّحه محمد يوسف الدقّاق، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1987م.
4. - ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصحّحه نعيم زرزور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1992م.
5. - الحِمْيَري، محمد بن عبد المنعم: الرَّوْضُ الْمِعْطَار في خَبر الأقطار، حقّقه إحسان عبّاس، بيروت، مكتبة لبنان، ط2، 1984م.
6. - ابن الخطيب، الوزير لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي الأندلسي: تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط (القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام)، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1964م.
7. - ابن خلّكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان فيما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبته البيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ط4، 2005م.
8. - ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى: كتاب الجغرافيا، حقّقه ووضع مقدمته وعلّق عليه إسماعيل العربي، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1970.
9. - ابن عذاري المراكشي، أبو العباس أحمد بن محمد: البيان الْمُغْرِب في أخبار الأندلس والْمَغْرب، تحقيق ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، ط3، 1983م.
10. - ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى: مَسَالك الأبصار في ممالك الأمصار، أشرف على تحقيق الموسوعة وحَقّقَ هذا السِّفْر كامل

1 إحسان عباس: تاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص127.

2 ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، 234/5.

3 ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق، 295/8-296. كذلك ابن خلدون: تاريخ، مصدر سابق، 19/6-20.

واليَازوري: هو أبو محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليَازوري، من أهل يازور (قرية من عمل الرّملة بالشام)، قَدِمَ إلى القاهرة وتَوَلّى خدمة السيدة والدة الخليفة المستنصر، ولم يلبث أنْ تَوَلّى الوزارة له سنة 442هـ/1050م. وأبلى فيها بلاءً حسناً. وانتهى به الأمر أنْ قُبِضَ عليه في المحرّم من سنة 450هـ/1058م، وسُيّر إلى مدينة تِنّيس وقتل فيها، وذلك بعد أن سُعِيَ فيه بأنه يُهَرّب الأموال إلى الشام والقدس في توابيت، وأنه يُعَوّل على الهرب إلى بغداد = ابن الصّيْرَفي: الإشارة، مرجع سابق، ص73، 76، 81.

4 ابن أبي دينار، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني: كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تونس، مطبعة الدولة التونسية، ط1، 1386هـ، ص83.

5 للمزيد عن بَني هلال وبَني سليم، وعن أصولهم الحجازية، وكيفية زحفهم على المغرب وما دار بينهم وبين المعز بن باديس من حروب استطاعوا خلالها هزيمته وحصاره في مدينة المهدية، والسّيطرة على جُلّ ولاياته في إفريقية بما فيها القيروان، وما جَرَى بعدها من أحداث يُنظر: ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق، 295/8-298. ابن خلدون: تاريخ، مصدر سابق، 17/6-30. ابن غلبون: التذكار، مصدر سابق، ص60 وما بعدها. النائب الانصاري: المنهل العذب، مصدر سابق، 102/1-104.

سلمان الجبوري، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2010م.

11. - ابن ناصر الدَّرْعي، أبو العباس أحمد بن محمد: الرحلة الناصريّة 1709-1710م، حقّقها وقدّم لها عبد الحفيظ ملوكي، أبو ظبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1، 2011م.

12. - ابن مَنْظور، عبد الله بن محمد بن الْمُكرّم بن أبي الحسن بن أحمد الأنصاري الخزرجي: لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، القاهرة، دار المعارف، د.ت.

13. - الأنطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى: تاريخ الأنطاكي "المعروف بِصِلَة تاريخ أوتيخا"، حقّقه وصنع فهارسه عمر عبد السلام تدمري، طرابلس الشام، جرّوس برسّ، 1990م.

14. - التّجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد: رحلة التّجاني، ليبيا-تونس، الدار العربية للكتاب، 1981م.

15. - الدّبّاغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأُسَيدي: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلّق عليه أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي، تحقيق وتعليق محمد ماضور، تونس-مصر، المكتبة العتيقة-مكتبة الخانجي، 1978م.

16. - الشّماخي، أحمد بن سعيد بن عبد الواحد: كتاب السِّيَر، تحقيق أحمد بن سعود السّيابي، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، ط2، 1992م.

17. - الطّبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الرُّسُل والْمُلُوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، 1969.

18. - عماد الدين، إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب "القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار وفنون الآثار في ذكر النبي المصطفى ووصيّه الكرّار وآلهما الأطهار"، تحقيق محمد اليعلاوي بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1985م.

19. - القاضي النّعمان، أبو حنيفة النّعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيّون: كتاب افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ط2، 1986م.

20. - الكندي المصري، أبو عمر محمد بن يوسف: كتاب الولاة وكتاب القضاة، مهذباً ومصححاً بقلم رفن كست، بيروت، مطبعة الآبا اليسوعيين، 1908م.

21. - المقريزي، تَقِيّ الدين أحمد بن علي: اتِّعاظ الحُنَفَا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلَفَا،

22. الجزء الأول: تحقيق جمال الدين الشّيّال، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط2، 1996م.

23. الجزء الثاني: تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط1، 1996م.

24. - النّاصري، أبو العبّاس أحمد بن خالد: كتاب الاستقصاء لأخبار دُوَل المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر النّاصري وخالد النّاصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1997م.

25. - النّويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق نجيب مصطفى فوّاز وحكمت كشلي فوّاز، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2004م.

26. - ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله: معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977م.

ثانياً: المراجع:

1- الكتب:

1. - الأحمر، رمضان محمد رمضان: الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية (358-567هـ/969-1171م)، القاهرة، شركة القدس للنشر والتوزيع، ط1، 2012.

2. - البرغوثي، عبد اللطيف محمود: تاريخ ليبيا الإسلامي من الفتح الإسلامي حتّى بداية العصر العثماني، بيروت، دار صادر، 1973م.

3. - جمال الدين، عبد الله محمد: الدولة الفاطمية قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر إلى نهاية القرن الرابع الهجري مع عناية خاصة بالجيش، القاهرة، دار الثقافة، 1991م.

4. - حسن، حسن إبراهيم: الفاطميّون في مصر وأعمالهم السّياسية والدينية بوجه خاص، ترجمه إلى العربية حسن إبراهيم حسن، القاهرة، المطبعة الأميرية، 1932م.

5. - حواله، يوسف بن أحمد: الحياة العلمية في إفريقية "المغرب الأدنى" منذ إتمام الفتح وحتّى منتصف القرن الخامس الهجري (90/450هـ)، مَكّة المكرمة، جامعة أم القرى، ط1، 2000م.

6. - روسّي، إتّوري: ليبيا منذ الفتح العربي حتّى سنة 1911م، ترجمة وتقديم خليفة محمد التليسي، د.م، الدار العربية للكتاب، ط2، 1991م.

7. - الزّاوي، الطّاهر أحمد: أعلام ليبيا، بيروت، دار المدار الإسلامي، ط3، 2004م.

8. معجم البلدان الليبية، طرابلس، مكتبة النور، ط1، 1968م.

9. ولاة طرابلس من بداية الفتح إلى نهاية العهد التركي، بيروت، دار الفتح للطباعة والنشر، ط1، 1970م.

10. - الزّيْني، نُهَى: أيّام الأمازيغ أضواء على التاريخ السّياسي الإسلامي، القاهرة، دار الشروق، ط2، 2012م.

11. - الطّالبي، محمد: الدولة الأغلبية التاريخ السياسي (184-296هـ/800-909م)، تعريب المنجي الصَّيَّادي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1995م.

12. - عبّاس، إحسان: تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتّى مطلع القرن التاسع الهجري، بنغازي، دار ليبيا للنشر والتوزيع، ط1، 1967م.

13. - العبادي، أحمد مختار: في التاريخ العباسي والفاطمي، بيروت، دار النهضة العربية، د. ت.

14. - عبد الحميد، سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية، منشأة المعارف،

15. الجزء الثاني، 1979م.

16. الجزء الثالث، 1990م.

17. - لقبال، موسى: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979م.

18. - مزهودي، مسعود: جبل نفوسة في العصر الإسلامي الوسيط (21-442هـ/642-1053م)، سلطنة عمان، مكتبة الضّامري للنشر والتوزيع، ط1، 2010م.

19. - مفتاح، صالح مصطفى: ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، بنغازي، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1978م.

2- المجلّات والدّوْريّات والمؤتمرات العِلْمِيّة:

1. - الأحمر، رمضان محمد رمضان: سياسة الفاطميين في احتلال مصر وتوطيد أركانهم فيها، دورية كان التاريخية، السنة السادسة، العدد الثاني والعشرون، ديسمبر 2013م.

2. - التّليسي، بشير رمضان، تاريخ ليبيا عقب الفتح العربي الإسلامي، بحث منشور ضمن كتاب معالم الحضارة الإسلامية في ليبيا، القاهرة، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، ط1، 2008م.

3. - Alahmar, Ramdan M Ramdan and Ahmed Faisal bin Abdul Hamid: "The Revolution of Abu Rakwah Against the Fatimids In Barca And His Attempt to Overthrow Their Rule in Egypt", JOURNAL AL-MUQADDIMAH, Department of Islamic History and Civilisation in Malaya University, Volume 5, Issue 1, June, 2017.

3- المَوسوعات والمَعَاجم والقَواميس:

1. - الزِّرِكْلي، خير الدين: الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، بيروت، دار العلم للملايين، ط15، 2002م.
2. - العفيفي، عبد الحكيم: موسوعة 1000 مدينة إسلامية، بيروت، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2000م.
3. - كَحّالة، عمر رضا: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط8، 1997م.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

1. Ying, yang ؛Yang, Y; Zhang, M; Kou, Y (2016). Self-compassion and life satisfaction: The mediating role of hope? People's Republic of China University, Beijing.